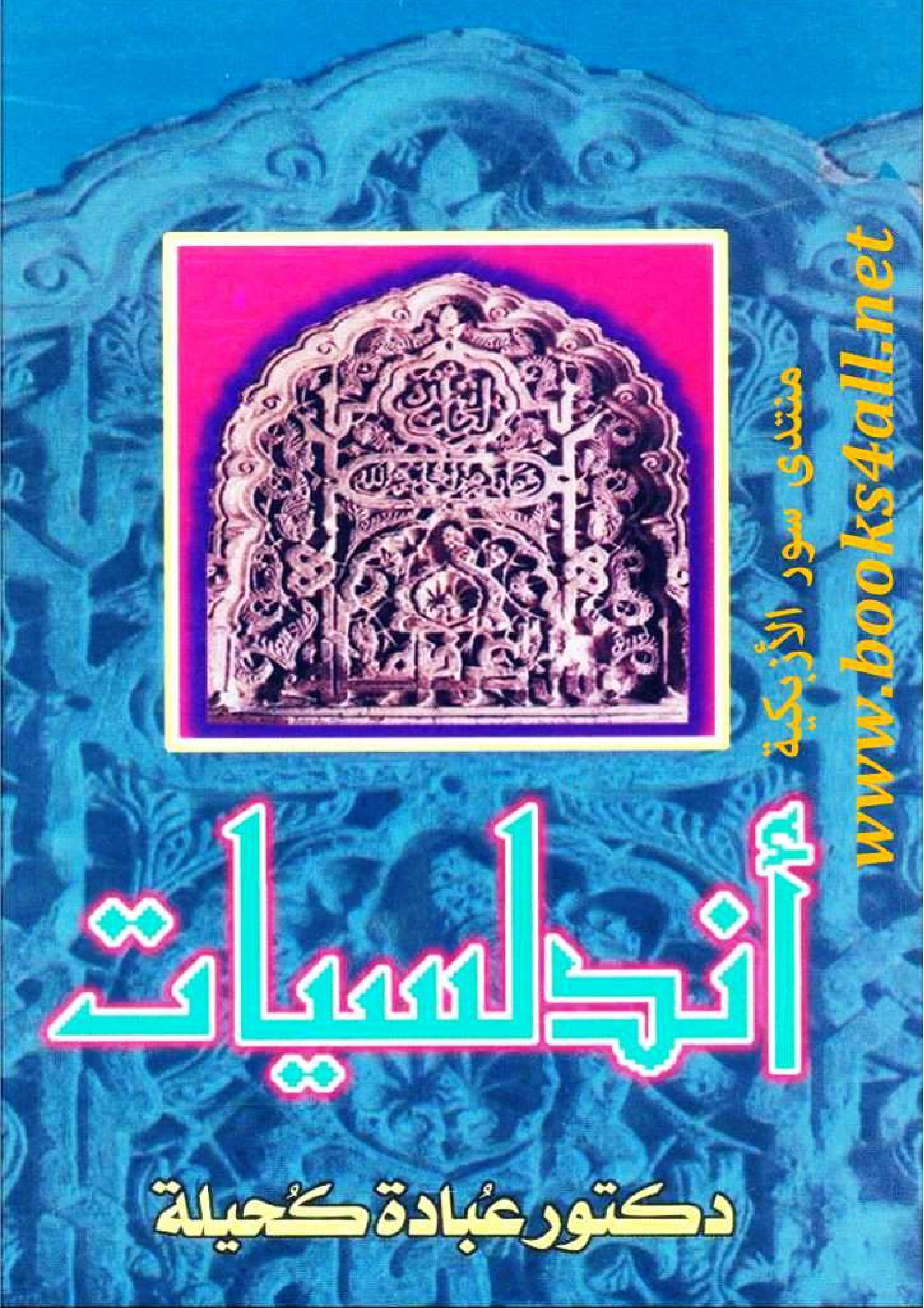

أندلسيات
دكتور عُبادة كُحيلة
www.books4all.net
منتدى سور الأزبكية


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

أندلسيات

أبو أدهم
عُبادة بن عبد الرحمن رضا كُحيلة
أستاذ
كلية الآداب جامعة القاهرة

2001 - 1421

الطبعة الثانية مزيدة

الغلاف هدية من الفنان سعيد المسيري

إهداء

إلى فلسطين .. كل فلسطين

عربيةً ... وستبقى عربية ..

عاثت بساحتك العدى يا دارُ

ومحا محاسنك البلى والنارُ

وإذا تردد في جنابك ناظر

طال اعتبار فيك واستعبار

أرض تقاذفت الخطوب بأهلها

وتمخضت بخرابها الأقدار

كتبت يد الحدثان في عرصاتها

لا أنت أنت ولا الديار ديار

ابن خفاجة الأندلسي

فهرس

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

بصدور هذه الطبعة يكون قد مضى إثنتا عشرة سنة على صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب ، أنجزنا خلالها أربعة كتب ، تعبق جميعها بريح الأندلس . والحق إن الأندلس جديرة بأن تصنف من أجلها الكتب وتدبج المقالات ، فقد كانت ذات يوم جنة عربية ، أضعناها بحمقنا وجهلنا وهواننا على أنفسنا قبل هواننا على غيرنا . وها نحن اليوم نضيع أندلسا أخرى ، ولا ندري ما الذي سوف نضيع بعدها .

وموضوعات هذا الكتاب في طبعته الثانية ، تظل كما كانت في طبعته الأولى ، تدور جميعها حول قضايا خلافية بقدر ما هي جديدة ، قمينة بأن تناقش، لا أن نذهب مذهب الشاعر إذ يقول :

ما أرانا نقــول إلا معــارًا

أو معادًا من لفظنا مكرورا

في هذه الطبعة الثانية أضفنا فصلاً عن مستوطنة - أو بالأحرى دويلة - أقامها مسلمو الأندلس لدى الشاطئ

الفرنسي أو ما كان يعرف - وما يزال - بإقليم پروڤانس. وكانت معلوماتنا عن هذه المستوطنة مستقاة - في مجملها - من المصادر الفرنجية وحدها ، وحسب البعض إن المصادر العربية غفلّ منها ، ونهضنا نحن بالتأكيد على أن ورد خبرها في هذه المصادر ، ومن مقابلتنا بينها وبين المصادر الفرنجية ، استطعنا أن نأتي برؤيا تاريخية جديدة لها .

هكذا يتضح للقارئ اللبيب أن الأندلس ما تزال تنبض بلآلىء، تبحث عمن يظفر بها .

نتقدم بهذه الطبعة ، عسى أن تحظى من قارئنا ، بمثل ما حظيت به سابقتها ... وعلى الله قصد السبيل.

الهرم - الجيزة في يوم الجمعة غرّة ذي القعدة 1421

السادس والعشرين من يناير (كانون الثاني) 2001

أبو أدهم

عُبادة بن عبد الرحمن رضا كُحيلة

مقدمة الطبعة الأولى

بعد أن انتظرت العمر كله .. عبرت إلى الأندلس .. زرت هذه البلاد الجميلة قبل عام وبضع العام .. بكيت وأنا أدلف - على غير وضوء - إلى جامع قرطبة ..

وبكيت وأنا أتطلع إلى مفتاح إشبيلية ، الكائن في أحد متاحفها ..

وبكيت وأنا أنصت إلى الدليل في أفياء الحمراء يقول : إن هذه المدينة ، صارت بعد « الإسترداد » سكنًا للصوص والرعاع والغجر .

بكيت .. وبكيت .. وبكيت ..

وتذكرت موسى أبي الغسان[1].

وتذكرت أيضًا سليمان خاطر[2].

---

(١) بطل أندلسي رفض أن يذعن للاستسلام الذى ارتضاه (عقلاء قومه) وقتل عدداً من الإسبان حتى قتل .

(٢) بطل مصرى رفض أن يذعن للاستسلام الذى ارتضاه (عقلاء قومه) وقتل عدداً من الصهاينة حتى قتل ، ويذهب الإعلام الرسمى إلى أنه انتحر .

الإثنان معاً على تباعد الزمان والمكان ، عبرا عن فكرة واحدة ، وعن موقف واحد ، والإثنان - معاً - أدانا العجز ، وأدانا اللافعل ، وكأنهما يقولان : إذا كان لا بد من الموت ، فلنمت واقفين .

بعد عامين وبضع العام تحتفل إسبانيا ، ويحتفل معها كل أعداء العرب ، بمرور خمسمائة عام على تسليم غرناطة .

ماذا أعددنا نحن لهذا اليوم ، أم إن أندلس الحاضر ، أنستنا أندلس الماضى .

حتى أندلس الحاضر تضيع منا ، ونحن عنها ذاهلون .

وهذا الكتاب تجميع لمقالات ، نشر معظمها فى دوريات علمية . رأيت من الأوفق أن يضمها غلاف واحد ، ذو عنوان واحد ، ويلوح لى إنها بداية طموح لمشروع طموح ، أتهيأ له فى قابل من الأيام .

هذا المشروع هو تاريخ جديد ، بنظرة جديدة للأندلس .

لن أستطرد في تفصيلات خلال الكتاب ، وهو في مجمله يتعرض لقضايا خلافية ، ويحاول أن يصل إلى الإجابة الشافية عنها .

والله الموفق قبلاً وبعداً .

العجوزة - الجيزة في غرة المحرم 1410

3 من أغسطس (آب) 1989

د. عُبادة عبد الرحمن رضا كُحيلة

الفصل الأول

ابن حزم واللغة العامية في الأندلس

موضوع اللغة العامية بالأندلس موضوع شائق وشائك .. شائق لجدته النسبية ، وشائك لتعدد الآراء فيه .

والمعروف إن اللغة السائدة فى شبه الجزيرة الأيبيرية ، قبيل مقدم المسلمين هى اللغة اللاتينية ، وقد انبثقت عن هذه اللغة فى إسبانيا وفى غيرها من الأقطار الأوربية لغة دعيت بالرومانسية ، أو الرومانثية El Romance .

على أنه بعد الفتح الإسلامى ، وبعد تأثر باللغة العربية وتطور ، نشأت اللغة القشتالية ، وهى الإسبانية القديمة ، وربما كانت ملحمة السّيد el Poema de mío Cíd ، هى أقدم نص أدبى يكتب بهذه اللغة ، وتعود فى تاريخها إلى أوائل القرن الثانى عشر الميلادى [١] .

- 1 -

تذهب بعض الدراسات الحديثة إلى أن اللاتينية ، وهى التى دعيت فى المصادر العربية باللطينية ـ أو بعجمية أهل الأندلس ـ كانت فى

---

(١) راجع الترجمة العربية لهذه الملحمة ، والدراسة الضافية الملحقة بها ، للأستاذ الفاضل الطاهر أحمد مكى . القاهرة ، دار المعارف ١٩٧٩ .

صورتها الرومانثية هى اللغة العامة أو العامية المشتركة بين عناصر المجتمع الأندلسى جميعها .

يشرح ريبيرا Julian Ribera (ت ١٩٣٤) هذا بقـــوله إن الأندلسيين كانوا يستخدمون الفصحى كلغة رسمية ، أما فى شئون حياتهم اليومية ، فكانوا يستخدمون الرومانثية ، ويؤيده فى ذلك جونثالث بالنثيا A. Gonzáles Palencia (ت ١٩٤٩) الذى يقرر أيضاً إن العرب الذين دخلوا شبه الجزيرة ، لم يعودوا بعد ثلاثة أجيال أو أربعة ساميين ولا مشارقة .. هذا الإزدواج اللغوى يفسر ظهور نمط من الشعر الخاص بالأندلس وحدها هو الموشحات والأزجال [٢] .

أما ترند J. B. Trend فى الفصل الخاص بإسبانيا والبرتغال من كتاب « تراث الإسلام » [٣] ، فيذهب بدوره إلى إنه كانت توجد فى الأندلس أربع لغات ، هى العربية القديمة (يقصد الفصحى) وهى لغة الأدب ، والعربية الدارجة وهى لغة الإدارة والحكومة ، واللاتينية الكنسية وهى لغة العبادة عند النصارى ، واللهجة الرومانثية وهى لغة التعامل .

---

(٢) تاريخ الفكر الأندلسى ، ترجمة حسين مؤنس ، القاهرة ، النهضة المصرية ، ١٩٥٥ ، ص ١٤٢ .

(٣) ترجمة حسين مؤنس وآخرين ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٥ ، جـ١ . ص ١٤ .

وينحو ليفى بروفنسال É Lévi - Provençal (ت ١٩٥٦)[٤] منحىً معتدلاً ، فيذكر إن نسبةً عاليةً من أهل الأندلس كانت تتكلم اللغتين العربية واللاتينية بالسهولة نفسها ، ولم يأنف العرب أنفسهم من استخدام الرومانثية فى أحاديثهم ، بما فى ذلك قصر الخلافة نفسه، وتغلغلت الرومانثية فى عامية أهل الأندلس ، الأمر الذى نلمسه فى المعاجم اللاتينية العربية ، أو القشتالية العربية فى نهاية العصور الوسطى[٥] .

خلاصة مذهب هؤلاء وغيرهم ، هو إن اللغة العامية بالأندلس ، هى بالدرجة الأولى لاتينية وليست عربية ، أو إن فيها من اللاتينية أضعاف ما فيها من العربية . وقد وافقهم فى مذهبهم هذا على نحو أو آخر بعض الباحثين العرب ومنهم حسين مؤنس (ت ١٩٩٦) [٦] .

---

(٤) الحضارة العربية فى إسبانيا ، ط١ . ترجمة الطاهر أحمد مكى . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٩ . ص ١١٢ ـ ١١٣ .

(٥) مثل معجم الفوكا بوليستا Vocabulista لبطرُه القَلَعى Pedro de Alcalá وكانت هذه المعجمات موجهةً إلى المسلمين الذين صاروا خاضعين للنصارى بهدف تنصيرهم وإدماجهم .

(٦) فجر الأندلس ؛ دراسة فى تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامى إلى قيام الدولة الأموية . القاهرة ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٥٩ . ص ٣٧٦ ـ ٣٧٧ . ٤٣١ ـ ٤٣٢ .

نذهب من ناحيتنا إلى إن فى هذا المذهب قدراً كبيراً من التزيد والتجاوز ، فكيف يجوز للغة راقية هى اللغة العربية ، تنتمى إلى حضارة راقية هى الحضارة الإسلامية . أن تترك الساحة للغة أخرى غيرها ، خصوصًا وأن الإسلام صار هو دين الكثرة الغالبة من أهل البلاد إبان عصر الخلافة .

- 2 -

يستند هؤلاء الباحثون إلى بعض ما تواتر فى مصادرنا العربية ، عن عجمية أهل الأندلس أو اللطينية ، وخاصةً هذا النص الذى أورده ابن حزم (ت٤٥٦/١٠٦٤) فى كتابه « جمهرة أنساب العرب » [٧] .

يقول ابن حزم :

« ودار بلىّ[٨] بالأندلس الموضع المعروف باسمهم بشمالى قُرطبة، وهم هنالك إلى اليوم على أنسابهم ، لا يحسنون الكلام باللطينية . لكن بالعربية فقط - نساؤهم ورجالهم - ويقرون[٩] الضيف ، ولا يأكلون ألْيَة الشاة[١٠] إلى اليوم ، وكانت لهم دار أخرى بكورة موْرور أيضاً » .

---

(٧) تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٧١ (ذخائر العرب - ٢) . ص ٤٤٣ .

(٨) قبيلة من قضاعة اليمن .

(٩) يكرِمون .

(١٠) عجِيزَة الشاة .

يخـرج هؤلاء البـاحـثـون من نص ابن حـزم اهذا إلى إن القـاعـدة العامة، هى أن يتحدث الأندلسيون ـ والعرب منهم ـ باللاتينية ، وانفرد البلويون ـ وحدهم دون غيرهم ـ بأن تحدثوا بالعربية .

فى تقديرنا أنهم قد فهـموا هذا النص على نحو خاطئ ، ونناقش أهم جملـة فيه وهى « لا يحسنون الكلام باللطينية ، لكن بالعربيـة فقط » . فهذه الجملة تحتمل أكثر من معنى ، فتحتمل أن القـاعدة العامة ، هى أن يتحدث الناس باللغتين العربية واللاتينية معاً ، وانفرد بنو بلى ، بأنهم كانوا يتحدثون بالعربية وحدها ، ومن هنا جاء إصراره على التفقيط .

ويحتمل أيضًا أنهم ـ أى بنو بلى ـ كـانوا يعرفون اللاتينية ، وقد يتكلمون بها ، لكنهم لا يحسنونها . وهذا يجعلنا نفترض أن غيرهم من أهل الأندلس والعرب كـانوا يحسنون الكلام باللاتينية إلى جانب العربية .

ليس فى هذا النص ، ما نستدل منه على أن الأندلسيين ـ والعرب منهم ـ كفوا عن الحديث بالعربية .

ابن حزم إذن لم يقصد من عبارته تلك ما خرج به هؤلاء ، وهو إذا كان لا يقرر بوضوح أن العربية كانت هى اللغة العامة المشتركة فى الأندلس ، فتفسيره أن كتاب الجمهرة موجه إلى أهل عصره ، وليس من الضرورى أن يقرر حقيقةً يعيشونها .

ما دام الأمر كذلك ـ وإنه لكذلك ـ فلماذا أقحم ابن حزم هذه العبارة فى كتاب موضوعه أنساب العرب .

فى تقديرنا إن الهدف من اقحام هذه العبارة ، هو تأكيد ابن حزم على عروبة بلى ، واصرارهم عليها ، فى زمان اختلطت فيه الأنساب ، وصار صعباً أن تجد أحداً صريحاً فى عروبته .

بعبارة أخرى إن هدف ابن حزم في هذا النص عرقى وليس لغوياً . وهو يدلل على عروبة بلى :

١ ـ « وهم هنالك إلى اليوم على أنسابهم » .

٢ ـ « لا يحسنون الكلام باللطينية ، لكن بالعربية فقط » .

٣ ـ « نساؤهم ورجالهم » (والفقيه الظاهرى يصر على تقديم النساء على الرجال ، بسبب أن كثيراً منهن كن من أهل البلاد الأصليين ، وتحدثهن بالعربية ، يؤكد ما يدافع عنه من عروبة بلى) .

٤ ـ « ويقرون الضيف ولا يأكلون ألية الشاة إلى اليوم » (وفيه إصرار آخر على ممارسة عاداتهم العربية) .

نضع عبارة ابن حزم فى سياقها الصحيح ، ولا نتعسف فى استخدامها ، ويحضرنا فى هذا الشأن ما ورد بخصوص أهل شِلْب Silves جنوبى البرتغال ، وصراحتهم فى العرب ، وفصاحتهم فى

العربية ، وتفوقهم فى الشعر وكرمهم ، وما تواتر من نصوص فى نزهة الإدريسى [١١] ، وفى معجمى الحميرى[١٢] وياقوت [١٣].

يقول الإدريسى (ت حوالى ٥٦٠ / ١١٦٤) :

« والمدينة (يقصد شلب) فى ذاتها حسنة الهيئة بديعة المبانى ، مرتبة الأسواق ، وأهلها وسكان قراها ، عرب من اليمن وغيرها ، وهم يتكلمون بالكلام العربى الصريح ، ويقولون الشعر ، وهم فصحاء نبلاء خاصتهم وعامتهم ، وأهل بوادى هذا البلد فى غاية من الكرم ، لا يجاريهم فيه أحد » .

ولِمَ نذهب بعيدا ، فألبرو Albaro الشهير فى أحداث الشهداء بقرطبة[١٤] فى أواسط القرن التاسع الميلادى ، وقبل ابن حزم بقرنين أو نحوهما يقول فى نص طويل :

---

(١١) تحقيق تشيرولى وآخرين ، روما ـ نابولى ١٩٧٠ ـ ١٩٨٤ . جـ٥ . ص٥٤٣ .

(١٢) الروض المعطار فى خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ، مكتبة لبنان ١٩٨٤ . ص ٣٤٢ .

(١٣) معجم البلدان ، بيروت ، دار إحياء التراث العربى ، ١٩٧٩ . جـ٣ ، ص٣٥٧ ـ ٣٥٨ .

(١٤) ضجت قرطبة فى هذه الأثناء بموجة من التعصب قادها بعض القساوسة النصارى خاصةً إيولوخيو Eulogius وتلميذه البرو ، فتهجموا ـ دون مبرر معقول ـ على الإسلام ونبيه الكريم ، وحرضوا عدداً من المسلمين ـ من =

« إن النصارى - إخوانى - مولعون بشعر العرب وقصصهم ، ويعكفون على أعمال الفقهاء المسلمين ، ليس لدحضٍ ما ورد بها ، ولكن ليكتسبوا أسلوباً عربياً صحيحًا وأنيقًا ،وإنك لن تجد اليوم أحداً من غير رجال الدين ، يستطيع أن يطالع التعليقات اللاتينية على الكتب المقدسة . لقد نسى النصارى لغتهم ، وتجد واحداً بالكاد بين ألف ، يستطيع أن ينشئ باللاتينية خطابًا إلى صديق ، لكنه لدى الكتابة بالعربية ، فإنك تجد الكثيرين يجيدون التعبير عن أنفسهم بها ، بل ينظمون شعراً يفوق فى جزالته شعر العرب أنفسهم » (١٥).

يشوب نص ألبرو قدر من المبالغة فرضه تحمسه ضد المسلمين الفاتحين ولغتهم ، بيد إن صميمه لا يفترق عن واقع كان موجوداً إبان السيادة الإسلامية بالأندلس ، وهو أن اللغة العربية ، كانت هى اللغة العامة المشتركة بين عناصر المجتمع الأندلسى جميعها ، حتي زوال هذه السيادة فى أخريات القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى .

= أمهات نصرانيات - على التخلى عن دينهم والتنصر . وبعد صبر طويل عاقبت الدولة هؤلاء المتعصبين بالقتل .

(15) Simonet, D . Francisco Javier : Historia de los Mozárabes de España . Memorias de la Real Academia de Historia . Madrid ,1897 - 1903 . Tomo XIII, pp. 369 - 371 .

يؤيد ذلك ما تناهى إلينا من وثائق مستعربية ـ أى نصرانية أندلسية ـ بمدينة طُلَيْطُلَة Toledo ، فهذه المدينة خرجت عن سيادة المسلمين فى سنة ٤٧٨ / ١٠٨٥ أى إنها عادت إلى دائرة النصرانية من جديد . على أن أهلها من المستعربين ، ظلوا يتحدثون بالعربية ، ويكتبون بها وثائق ، غالبها يتصل بالمعاملات نحواً من قرنين ، وحتى فى حال كون أحد الأطراف لا يحسن العربية ، أو لا يعرفها ، فإنه كان يدون بالوثيقة إنه قد شرح له بلفظ أعجمى [١٦]. ووصل الأمر إلى حد استخدام العربية نفسها داخل الكنيسة، فنجد فى الكتب الدينية المكتوبة باللاتينية شروحًا بين السطور بالعربية ، ولدينا أمثلة على هذه الشروح[١٧] ، وتدل على أنها أضيفت لنصارى لغتهم الأولى هى العربية ، ودرايتهم بل ودراية بعض رجال دينهم باللاتينية محدودة . وعلى ذكر هؤلاء فبعض وصاياهم المكتوبة بالعربية ، كانت تبدأ بالبسملة الإسلامية ، وعثر على شواهد قبور لنصارى مكتوب عليها

---

(16) González Palencia, Angel : Los Mozárabes de Toledo en los siglos XII y XIII, Madrid, 1926 - 1930 . vol. II, pp. 13 , 23 .

(17) Van Koningsveld : The Latin Arabic Glossary of the Leiden University Library , 1977 . pp. 45 - 52 .

بالعربية أو بالعربية واللاتينية معاً وتبدأ بالبسملة [١٨].

- 3 -

على أن ذلك كله لا يعنى أن اللاتينيـة اختـفت تمامًـا من الأندلس، فقد كانت موجودةً ـ ولكن على مستويين ـ عند فئة محدودة من المثقفين النصارى ورجال دينهم ،يمارسون بها شعائر هذا الدين ، إلى جانب معرفتهم بالعربية ، الأمر الذى أهلهم ـ قوامس وقضاةً وأساقفة ـ لأن يقوموا بدور المترجمين والسفراء ، فى علاقة الدولة الأندلسية بنصارى الشمال [١٩].

كانت اللاتينية موجودة أيضًا على نحو محدود خارج دائرة المثقفين النصارى ، هذا الوجود المحدود كان يتناسب عكسياً مع انتشار الإسلام وتعريب الأندلس ، وكان يتناسب طرديًا مع التداخل الاجتماعى بين المسلمين وبين نصارى شبه الجزيرة ، فلا يخفى ما

---

(18) Lévi - Provençal : Inscriptions Árabes d'Espagne, Leyde, Brill, 1931 , pp. 78 - 79, Pons Boigues : Las, Escrituras Mozárabes Toledanos . Madrid 1897. p. 253 ff.

(١٩) ابن حيان : المقتبس من أنباء أهل الأندلس ، السفر الخامس . تحقيق شالميتا وكورينطى وصبح ، مدريد ، المعهد الإسبانى العربى للثقافة ١٩٧٩ . ص ٤٦٣ ، ٤٧٤ ، قطعة من عهد الحكم المستنصر .تحقيق عبد الرحمن الحجى . بيروت ، دار الثقافة ١٩٦٥ . ص ٦٤ ، ١٤٧ .

للإسلام من أثر فى الحد من المساحة الخاصة باللاتينية ، ولا يخفى أيضًا ما لسبى الشمال الوارد مع صوائف المسلمين من أثر فى تجاوز هذا الحد [٢٠].

هذا الوجود المحدود للغة اللاتينية يفسر دراية بعض أمراء الأندلس وخلفائها[٢١] بل وقضاتها[٢٢] بطرف منها ، ويفسر - من إحدى الزوايا - نص ابن حزم فى جمهرته .

أسفر هذا الوجود المحدود فى الوقت نفسه عن تسرب بعض الألفاظ اللاتينية إلى عامية أهل الأندلس ، بل وعربيتهم أيضًا . ونستطيع أن نقف على هذه الألفاظ فى ملحق دوزى للمعجمات العربية [٢٣]، وفى معجم سيمونيت للألفاظ الأيبيرية واللاتينية

---

(٢٠) عبد الواحد المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب . تحقيق العريان والعلمى ، القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرى ، ١٩٤٩ . ص ٣٨ ، ابن عذارى: البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب . تحقيق ليفى بروفنسال . بيروت ، دار الثقافة ١٩٦٧ . جـ٣ ، ص ١٣ .

(٢١) الزبيدى : طبقات النحويين واللغويين . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . القاهرة ، الخانجى ١٩٥٤ . ص ٢٨٧ .

(٢٢) الخشنى : قضاة قرطبة . القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦ . ص ٨٠ .

(23) Supplément aux dictionnaires Árabes , Leide Brill 1927.

المستخدمة بين المستعربين [٢٤] .

ثمة تأثير آخر للغة اللاتينية يشير إليه ابن حزم فى كتاب «الإحكام فى أصول الأحكام» [٢٥] وهو كتابه الأساسى فى أصول الفقه .

يقول ابن حزم :

« ونحن نجد من سمع لغة أهل فحص البلوط (Pedroche)، وهى على ليلة واحدة من قرطبة ، كاد أن يقول أنها لغة أخرى غير لغة أهل قرطبة ، وهكذا فى كثير من البلاد ، فإنه بمجاورة أهل البلدة بأمة أخرى ، يتبدل لغتها تبديلاً لا يخفى على من تأمله . ونحن نجد العامة قد بدلت الألفاظ فى اللغة العربية تبديلاً ، وهو فى البعد عن أصل تلك الكلمة كلغة أخرى ، ولا فرق فنجدهم يقولون فى العنب العِنّب وفى السوط أسْطوط وفى ثلاثة دنانير ثلثدًا . وإذا تعرب البربرى ، فأراد أن يقول الشجرة قال السجرة . وإذا تعرب الجِلّيقى أبدل من العين والحاء هاءً ، يقول مهمداً إذا أراد أن يقول محمداً » .

---

(24) Glosario de voces Ibéricas y Latinas usadas entre los Mozárabes . Madrid . Establecimiento tipografico de fortanet, 1888 .

(٢٥) تحقيق أحمد محمد شاكر ، القاهرة ، الخانجى ١٣٤٥هـ . جـ١ ، ص٣١ _ ٣٢ .

ما يقوله ابن حزم هنا أدخل فى باب اللحن منه فى باب تبديل لغة بلغة أخرى غيرها ، وهو على كثرة ما كتب ، وعلى كثرة ما وصلنا مما كتب ، لا يأتى بعبارة واحدة مباشرة تفيد أن اللاتينية كانت هى اللغة العامة أو العامية بالأندلس .. وفرق بين الإثنين .

لدينا أمثلة أخرى على هذا اللحن ، يشير إليها ليفى بروفنسال(٢٦) ، وخاصةً العلامات الرومانثية مثل ero , ella فيطلق على من يتولى إدارة الفندق فندقير ، بدلاً من فندقى ، ويطلق على الحارة الصغيرة حارية وليس حويرة .

الأكثر من ذلك أن المسلمين أضافوا إلى بعض أسمائهم المقطع الإسبانى الذى يتألف من الواو والنون للدلالة على التكبير مثل عبدون وأصلها عبد ، وعلى النهج نفسه خلدون وأصلها خالد ، وحفصون وأصلها حفص ، وزيدون وأصلها زيد . بل إنهم عندما كانوا يصغرون الإسم بعد تكبيره يقولون عبيدون أو عبيديس ، على وزن فعيعيل ، وكان ممكناً أن يصغروا الاسم الأصلى فيصير عُبيِّد .

- 4 -

نخرج من هذا كله إلى أن اللغة العامية بالأندلس هى اللغة العربية على نحو أساسى ، واللغة اللاتينية على نحو ثانوى، ولا مجال للتعسف مع نصوص ، مثل نص ابن حزم فى جمهرته ، لتعزيز أفكار مسبقة .

---

(٢٦) المرجع نفسه ، ص ١١٤ ـ ١١٥ .

الفصل الثانى

كتاب التواريخ

لپاولوس أوروسيوس وترجمته الأندلسية

من الأمور التى استرعت أنظار الباحثين ـ شرقين وغربيين ـ فى السنوات الأخيرة ، ما تميزت به الأندلس من خصوصية معينة ، داخل الإطار العام للحضارة الإسلامية فقد افترق مسار هذه الحضارة فى الأندلس عن مسارها فى أقطار إسلامية أخرى غير الأندلس [١] .

ولا شك فى أن التراث الثقافى الذى وقف عليه المسلمون بعد قدومهم إلى شبه الجزيرة ، قد لعب دوراً وافراً فى طبع الحضارة

(*) قدمت هذه الدراسة إلى « مؤتمر الحضارة الأندلسية » الذى عقد بجامعة القاهرة فى الفترة من ٢٠ إلى ٢٣ مارس ١٩٨٥ . ونشر فى مجلة أوراق جديدة التى تصدر عن المعهد الإسبانى العربى للثقافة فى مدريد ، العدد ٧ ـ ٨ ، سنة ١٩٨٤ ـ ١٩٨٥ . ونشرت أيضاً فى المجلة التاريخية المصرية ، المجلد ٣٣ ، سنة ١٩٨٦ . كما نشرت فى مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد ، المجلد ٢٣ ، سنة ١٩٨٥ ـ ١٩٨٦ .

(١) راجع فى هذا الشأن كتابنا « الخصوصية الأندلسية وأصولها الجغرافية » القاهرة ، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ١٩٩٥ .

الإسلامية بطابع خاص ، من مظاهره أن دخلت اللغة العربية ـ والعامية الأندلسية ـ بعض الألفاظ اللاتينية (أو الرومانثية)(٢) كما دخلت الشعر العربى بعض التأثيرات المسيحية والأيبيرية القديمة ، نقف على نماذج منها فى شعر ابن دراج (ت٤٢١هـ) وابن شهيد (ت٤٢٦) وابن زيدون « ت٤٦٣ » ، كما نقف عليها أيضًا فى شعر الموشحات والأزجال .

ننتقل الآن إلى موضوع هذا البحث ، وهو « كتاب التواريخ لپاولوس أوروسيوس وترجمته الأندلسية » .

- 1 -

فى مطالع القرن الخامس الميلادى كانت خيل الجرمان تدك أركان الإمبراطورية الرومانية فى الغرب ، وفى سنة ٤١٠م اقتحم القوط يقودهم ألارِك Alaricus قصبة هذه الإمبراطورية ، ومع أنهم فارقوها بعد قليل ، بل صاروا حلفاءً للرومان ومعاهدين Foederati ، إلا أن ما أقدموا عليه من تخريب لروما ، كان له أثره الفادح عند المعاصرين ،

---

(٢) توجد تفصيلات عديدة عن هذا التأثير فى :

Dozy , R: Supplément aux dictionnaires Árabes . deuxiéme édition , E. J. Brill 1927 , Simonet, Francisco Javier : Glosario de voces Ibéricas y Latinas usadas entre los Mozárabes . Madrid , establecimiento tipográfico de fortanet 1888 .

فلم يكن يتصور أحد مصيراً مثل ذلك لمدينة رومولوس وقيصر وأُغَسطس وقسطنطين .

إنصرف عدد من الوثنيين - وكانوا غالب سكان الإمبراطورية - فنسبوا إلى المسيحية مسئوليتها عما جرى من نكبات لهذه الإمبراطورية في عهدها الأخير[٣] مما أثار حفيظة أحد أحبار الكنيسة ورجالها المرموقين ،وهو القديس أوغسطين Augustinus[٤] فوضع كتابه «مدينة الله» De Civitate Dei حوالى سنة ٤١٥ (أو ٤١٦) يفند فيه هذا الزعم . وحين وفد عليه في مستقره بتونس قسيس إسبانى يدعى أوروسيوس Paulus Orosius عهد إليه أستاذه بوضع كتاب فى

---

(٣) إستمر هذا الاعتقاد فترة طويلة ، وكان منطلقاً لادوارد جيبون E. Gibbon فى كتابه الشهير عن اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها Decline and fall of the Roman Empire

(٤) عرف عند أهل الأندلس بأغشتين وأقشتين ، وذاعت كتبه عندهم ، وترجم بعضها إلى العربية ، وفى النص اللاتينى للتقويم القرطبى ، كان النصارى يحتفلون بعيده فى ٢٨ أغسطس .

أنظر: Le Calendrier de Cordue , publice par Dozy, Leyde: 1874, p. 82 .

ويلقبه الإمام القرطبى - وربما كان صاحب التفسير - بزعيم القسيسين ، ويقول « إن النصارى معولون على معرفته مقلدون له فى قومته وقعدته » الإعلام بما فى دين النصارى من الفساد والأوهام . تحقيق أحمد حجازى السقا . القاهرة ، دار التراث العربى ١٩٨٠ . جـ١ ، ص ١٤٣ .

التاريخ ، يوضح فيه ما صادفه الإنسان من نكبات على مر العصور ومن أحداث جسام ، لا شأن للمسيحية بها ، إنما هى نشأت لأسباب خارجة عنها .

دعى الكتاب الذى ألفه أوروسيوس[٥] « بكتب التواريخ السبعة فى الرد على الوثنيين » . (Historiarum adversum paganos libri septem) تناول فيه تاريخ الإنسانية منذ آدم عليه السلام حتى سنة ٤١٦ ، وهى السنة التى التقى فيها بأستاذه .

يستمد كتاب أوروسيوس أهميته من كونه مصدراً لتاريخ الإمبراطورية الرومانية فى مرحلتها المتأخرة ، شأنه فى ذلك شأن كتب يوسبيوس[٦] Eusebius (ت٣٤٠) ويوتروبيوس Eutropius « ت حوالى ٣٧٠م » وإيرونيموس[٧] Hieronymus وهو القديس جيروم (ت٤٢٠) ، كما يستمد أهميته أيضاً من النقول التى وردت فيه عن

---

(٥) توجد ترجمة مختصرة له فى معجم أكسفورد الكلاسيكى Oxford Classical Dicitionary , 1949. p. 627 ولا نقف على ترجمة له فى معجم التاريخ الإسبانى .

Diccionario de Historia de España . Revista de Occidente, Madrid 1952 .

(٦) عرف عند العرب بأوسابيوس القيسرانى .

(٧) عرف عند العرب بيرونم الترجمان .

مؤرخين ضاعت كتبهم بعد ، ولا أدل على أهمية كتاب أوروسيوس ، من أن وصلنا منه نحو من مائتى نسخة .

نشرت تواريخ أوروسيوس فى عصرنا الحديث عدة مرات ، والنشرة النقدية المعتمدة هى التى قام عليها تسانجمايستر Carl Zangmeister فى سنة ١٨٨٢ ، ضمن مجموعة Corpus Scriptorum Ecclesiasticorum Latinorum v. وترجمه إلى الإنجليزية I. W. Raymond ونشرته جامعة كولومبيا فى سنة ١٩٣٦ .

- 2 -

بلغت الحضارة الإسلامية فى الأندلس أوجها فى القرنين الرابع والخامس الهجريين ، أى فى عصر الخلافة الأموية وعصر الطوائف ، وإلى جانب ما أبدعه الأندلسيون فى مجالات شتى ، فقد تمت ترجمة كتاب أوروسيوس إلى اللغة العربية ونقل عنه عدد من مؤرخى الأندلس وجغرافييه ، ومنهم ابن جلجل (ت بعد ٣٨٤هـ) والبكرى (ت٤٧٨هـ) والحميرى (ت أواخر القرن الثامن هـ) وابن خلدون (ت٨٠٨هـ) ، بل نقل عنه أيضًا مؤرخ مسلم غير أندلسى هو المقريزى (ت٨٤٥هـ) .

والمشاهد أن شهرة أورسيوس عند المسلمين ، جعلت بعضهم ينقلون أخباراً عن غيره من المؤرخين القدامى ، ثم يضيفون هذه الأخبار إليه (٨) .

ورغماً عن شهرة أوروسيوس هذه ، فلم يصل إلينا من ترجمته العربية سوى نسخة واحدة محفوظة فى مكتبة جامعة كولومبيا بنيويورك تحت رقم X. 893. 712. H. قام على نشرها فى سنة ١٩٨٢ الأستاذ عبد الرحمن بدوى (٩) .

بمراجعة هذه النشرة نجدها تفترق عن الأصل اللاتينى ، باختصارها فى بعض المواضع أو حذف فقرات كاملة ، أو إضافة أخبار من مصادر أخرى ، لا يشير المترجم إليها ، وتبلغ فى جملتها نحو ثلث حجم الكتاب . والأهم من ذلك أن المترجم أكمل تاريخ أوروسيوس حتى قبيل مقدم العرب (١٠) ، وإن فقدت هذه التكملة ، بل فقد جزء

---

(٨) راجع المقارنات التى عقدها الأستاذ عبد الرحمن بدوى بين كتاب أوروسيوس وبين كتب المسلمين الذين أخذوا عنه وخاصةً ابن خلدون ، فى مقدمة تحقيقه للكتاب ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨٢ . ص ٢١ ـ ٤٧ .

(٩) وهو تحقيق جيد بذل صاحبه فى سبيله جهداً فائقًا ، وعاود النص الأصلى ، لكى تنقصه بعض الشروح ، كما تنقصه أيضاً كشافات تعين الباحثين .

(١٠) ورد فى أول الجزء السابع من الترجمة العربية ما يأتى « الجزء السابع فيه أخبار أملاك (ملوك » الرومانيين القياصرة ، من زمان قيصر أُكتبيان (يقصد أُكتافيانوس) الذى فى دولته ولد المسيح إلى الزمان الذى كتب فيه هذا الكتاب ، وما أضيف إليه من بعد دول القوط بالأندلس ، إلى دخول طارق عليهم أبوابه أربعة عشر » .

من النص الأصلى ، لأن النسخة التى لدينا تقف عند سنة ٣٧٨م[١١] .

وقد بدا الطابع الأندلسى واضحًا على هذه الترجمة ، فعرب اسم أوروسيوس إلى هروشيوش (وهروشيش)[١٢]، كما يبدأ الكتاب بالبسملة [١٣]، وتختتم أجزاؤه بحمد الله تعالى وطلب الرحمة لمؤلفه . ويرد تعبير جَوْف[١٤] بمعنى شمال ، وقبلة[١٥] بمعنى جنوب ، وفحوص[١٦] بمعنى سهول ، وسلاطين[١٧] بمعنى ملوك Reges ومجوس[١٨] بمعنى وثنيين Pagani ومصحف[١٩] بمعنى سفر أو كتاب دينى . بل ترد أبيات شعرية فى صياغة عربية ، تعليقًا على ما ورد بشأن صلب المسيح عليه السلام [٢٠]، وليس لهذه الأبيات أصل

---

(١١) وهى السنة التى قتل فيها الإمبراطور والنس Valens على أيدى القوط .

(١٢) كما عرب اسمه أيضًا إلى أهروشيوش ، هروشيوس ، هروسيس ، أوروشيوش ، أروشيوش ، وغير ذلك ، ويلاحظ ابدال السين شينًا على عادة الأندلسيين .

(١٣) ص ٥٣ .

(١٤) ص ٥٨ .

(١٥) ص ٦٠ .

(١٦) ص ٦١.

(١٧) ص ١٦٧ .

(١٨) ص ٤٢٢ .

(١٩) ص ٢٧٩ .

(٢٠) ص ٤٢١ .

فى النص اللاتينى . ويذكر من نسل سام بعضًا ممن ليس لهم ذكر فى سفر التكوين ، مثل قحطان وعرب اليمن (٢١) ، ويمسك فى الوقت نفسه عن تعيين الذبيح ، ويدعو إبراهيم عليه السلام بالخليل (٢٢) .

الطريف أيضًا أنه يعرب كمبانيا Campania فى إيطاليا بالقَنبانية(٢٣) وهو الاسم الذى كان يطلق على كورة قرطبة (٢٤) ، كما يعرب بلاد ما بين النهرين Mesopotamia بالكوفة (٢٥) . ويدعو الضرائب الغير الشرعية التى منعها الإمبراطور أنطونينوس پيوس Antoninus Pius بالمغارم والوظائف (٢٦) ، بل يدعو رجال الجيش Militaria بأهل الديوان (٢٧) ، والمناصب الحكومية بالخطط(٢٨) ونقيب العامة Tribunus Plebi بصاحب خراج الرومانيين(٢٩)

---

(٢١) ص ٨٧ .

(٢٢) ص ٩١ .

(٢٣) ص ٢٦٠ .

(٢٤) Campiña وقد أبدل الأندلسيون كعادتهم الميم نونا .

(٢٥) ص ٤٣٧ .

(٢٦) ص ٤٣٨ .

(٢٧) ص ٤٤٧ .

(٢٨) ص ٤٦٢ وقد جرت عادة الأندلسيين على أن يقولوا خطة الوزارة ، خطة القيادة ، خطة البريد ، خطة الخيل ، خطة الرد ، إلى غير ذلك .

(٢٩) ص ٣٣٢ _ ٣٣٣ .

ويستخدم تعبير إطباء[٣٠]، ويقصد به استمالة . ويصل به الأمر إلى حد الخطأ فيعرب الكلدانيين Chaldaei بالقضاعيين [٣١].

- 3 -

ننتقل الآن إلى قضية القضايا ، وهي متى تمت ترجمة كتاب أوروسيوس ؟ ومن الذى قام على هذه الترجمة ؟

في سنة ٣٣٧ / ٩٤٨ (أو ٣٣٦ / ٩٤٧ ـ ٩٤٨)[٣٢] أرسل ملك الروم ويدعوه ابن جلجل [٣٣] بأرمانيوس [٣٤] ـ إلى عبد الرحمن

---

(٣٠) ص ٤٥١ ،ويرد تعبير إطباء اليمن على لسان أبى عثمان عبيد الله بن عثمان مولى بنى أمية ، فى حديثه عن دخول عبد الرحمن بن معاوية فى سنة ١٣٨ / ٧٥٩ فيقول : « فانقطع رجاؤنا من مضر وربيعة بأسرها ، ورجع رأينا إلى إطباء اليمن وإدخالهم فى رأينا » أخبار مجموعة فى فتح الأندلس . نشر لافوينتى ائى ألكانترا ، مدريد ١٨٦٧ . ص ٧٤ .

(٣١) ص ١٦٨ .

(٣٢) ابن خلدون : العبر ، القاهرة ، بولاق ، المطبعة الكبرى ١٢٨٤هـ ، جـ٤ ، ص ١٤٣ .

(٣٣) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء . تحقيق نزار رضا ، بيروت ، مكتبة الحياة ١٩٦٥ . ص ٤٩٤ .

(٣٤) يقصد رومانوس الأول ليكاپينوس Romanus Lecapenus ٩٢٠ ـ ٩٤٤ وهو خطأ ، لأن الإمبراطور المعاصر لإرسال الكتابين هو قسطنطين السابع : پورفيرو جنيتوس Constantinus Porphyrogenitus وكان زوجًا لابنة =

الناصر ٣٠٠/٩١٢ ـ ٣٥٠/٩٦١ بكتاب الحشائش[٣٥] لديسقوريدس Dioscurides ومعه كتاب هروشيوش. ولمالم يكن فى الأندلس من يحسن اليونانية ، استجاب الملك لطلب الخليفة ، وبعث بنقولا الراهب الذى قام بالعبء الرئيسى فى ترجمة كتاب ديسقوريدس ، وأعانه نفر من المسلمين ، أحدهم على دراية باليونانية ، وأضحت هذه الترجمة معتمد الأندلسيين ، وحلت محل ترجمة مشرقية ، تنسب إلى اصطفن ابن بسيل ، راجعها حنين بن اسحق .

لا يهمنا فى هذا المقام كتاب ديسقوريدس ، إنما يهمنا كتاب هروشيوش ، ويورد ابن جلجل على لسان ملك الروم « وأما كتاب هروشيش ، فعندك فى بلدك من اللطينيين من يقرأه باللسان اللطينى ، وإن كشفتهم عنه نقلوه لك من اللطينى إلى اللسان العربى » .

= رومانوس ، والإمبراطور الشرعى ، لكن رومانوس استبد دونه بالسلطة وقاسمه لقبه من سنة ٩٢٠ إلى سنة ٩٤٤ . وربما دفع ابن جلجل إلى هذا الخلط شهرة رومانوس ، وما احرزه من أمجاد على المستوى الثقافى بتصنيفه عدة كتب ، وخاصةً فى التاريخ ، ونهوضه بالحركة العلمية فى عصره ، راجع :
Ostrogorsky ; George : History of the Byzantine State . Trans by Joan Hussey , Rutgers University Press , 1957 , pp. 234 - 248 .

(٣٥) أو الأدوية المفردة Materia Médica

مفهوم رواية ابن جلجل أن كتاب هروشيوش ، ترجم فى فترة ما بعد وصوله إلى الأندلس واستفاد منه ابن جلجل نفسه ، لكنه لا يصرح بشخصية المترجم . وقد وصلتنا هذه الترجمة وكان قميناً بها أن تحل المشكلة . لولا أن صفحة العنوان منزوعة منها ، كما إن الصفحات الأخيرة منزوعة أيضاً ، وربما ورد فى حردة المتن ما يشفينا .

نمضى بالبحث خطوة أخرى فيجبهنا نصان لابن خلدون .

فى معرض حديثه عن بنى إسرائيل وتاريخهم ، يشير ابن خلدون[٣٦] إلى مصادره كالطبرى والمسعودى وصاحب حماة (يقصد أبا الفدا) « وما نقله أيضًا هر وشيوش مؤرخ الروم فى كتابه الذى ترجمه للحكم المستنصر من بنى أمية قاضى النصارى وترجمانهم بقرطبة وقاسم بن أصبغ » وبعد عديد من الصفحات يقول[٣٧] « وخبر هروشيوش مقدم ، لأن واضعيه مسلمان كانا يترجمان لخلفاء الإسلام بقرطبة ، وهما معروفان ووضعا الكتاب » .

نخرج من نصى ابن خلدون بمعلومات ثلاث ، فالترجمة تمت بتوجيه من الحكم المستنصر ٩٦١/٣٥٠ ـ ٩٧٦/٣٦٦ ، وقام عليها اثنان من المسلمين ، شغل أحدهما منصب قاضى النصارى ، أما

---

(٣٦) المصدر نفسه ، ص ٨٨ .

(٣٧) ص ١٩٧ .

الآخر فهو قاسم بن أصبغ .

أما عن المعلومة الأولى فهى صحيحة ، لما عرف عن الحكم ـ أُغسطس الأندلس ـ من حب للكتب وشغف بجمعها ، وتشجيع على تصنيفها ، ومشاركته نفسه فى ذلك .

يقول ابن حيان [٣٨]ـ مؤرخ الأندلس الكبير (ت٤٦٩هـ) ـ «ولم يسمع فى الإسلام بخليفة ، بلغ مبلغ الحكم فى اقتناء الكتب والدواوين ، وايثارها والتهمم بها . أفاء على العلم ، ونوه بأهله ، ورغب الناس فى طلبه ، ووصلت عطاياه وصلاته إلى فقهاء الأمصار النائية عنه » .

المعلومة الثانية ،وهى أن أحد المترجمين كان مسلمًا ، يشغل منصب قاضى النصارى . لا نستطيع أن نتقبلها كما هى ، فلم تجر العادة فى الأندلس على ذلك ، لأن النصارى كان لهم قاضيهم الخاص بهم من أهل دينهم ، ويدعى قاضى النصارى أو قاضى العجم، وعرف فى اللاتينية باسم Consor او Judex[٣٩] وصار فى القشتالية

(٣٨) ابن الأبّار : الحلة السيراء . تحقيق حسين مؤنس ، القاهرة ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٦٣ . جـ١ ، ص ٢٠١ .

(39) Lévi - Provençal. É : Histoire de I Espagne Musulmane, Leide, Brill, 1950, vol III, p. 219 .

(40) Simonet : Historia de los Mozárabes de Espanã . Madrid Est Tip de la viude é Hijos de m Tello 1897 - 1903 . p.108 .

Alcalde [٤٠]، وكان تعيينه وعزله من شأن الخليفة ، لكنه يحكم بين قومه بما جاء فى كتاب القوانين Liber Judiciorum الذى عرف فيما بعد بـ Fuero Juzgo[٤١]. وقد عرف ابن حزم (ت٤٥٦هـ) هذا الكتاب وأشار إليه فى الفصل ، ويتحدث عن أحد هؤلاء القضاة ـ وقد عاصره ـ وكان يتكرر عليه بمجلسه ، وعارضه مرةً فى بعض ما ورد فى القرآن الكريم عن أهل الجنة ، وفند ابن حزم زعمه بنص الإنجيل نفسه [٤٢].

ولا يتناقض اختصاص النصارى بقاض من أهل دينهم مع سماح الدولة لهم بأن يتقاضوا إذا هم شاءوا إلى قاضى المسلمين ، بل

---

(41) Lévi-Provençal : L'Espagne Musulmane au xéme siécle. Paris Larose, 1932, p. 37 .

وقد وضع ألارك الثانى نواة هذا الكتاب فى سنة ٥٠٦ باسم lex Romana ودعى فيها بعد بمختصر آلارك Breviarium Alarici وبعد عدة ذيول وشروح دعى بكتاب القوانين واشتهر بقانون ركسفنث Les Romana Reccesvindiana

راجع :

O'Callaghan, J. F: A History of Medieval Spain . Cornell Univ. Press , 1975 , p. 40 , Cambridge Medieval History , 1936,vol. II, p. 178 .

(٤٢) القاهرة ، الخانجى ، ١٣٢٠هـ . جـ١ ، ص ١٠٨ـ ١٠٩ ، وانظر أيضًا جـ٢ ، ص ٣ ، المحلى ، تحقيق أحمد محمد شاكر . القاهرة ، إدارة الطباعة المنيرية ١٣٤٨هـ . جـ٩ ، ص ٣٠٧ ـ ٣٠٨ .

وإلزامهم بذلك إذا كان أحد طرفى الخصومة مسلمًا ، أو كان الأمر يتصل بحد أو قصاص أو تعزير (٤٣).

نرفض إذن المعلومة الثانية ، وننتقل إلى المعلومة الثالثة وهى الخاصة بالمترجم الآخر قاسم بن أصبغ ، ونراجع أقدم كتب التراجم العامة بالأندلس ، وأشهرها جميعًا وهو « تاريخ علماء الأندلس » لابن الفَرَضِى (ت٤٠٣هـ) .

لدينا ثلاثة من الأندلسيين عاشوا فى القرن الرابع الهجرى ، ودعوا بالاسم نفسه ؛ أولهم قاسم بن أصبغ بن محمد بن يوسف بن ناصح ابن عطاء البيانى (٤٤)، مولى الوليد بن عبد الملك ، وقد ولد فى سنة ٨٥٩/٢٤٤ ومات فى سنة ٩٥١/٣٤٠ . سمع بقرطبة من بقى بن مخلد وأبى عبد الله الخشنى وابن وضاح وأصبغ بن خليل وغيرهم ، ورحل إلى المشرق ، فسمع بمكة والكوفة وبغداد ومصر والقيروان .

---

(٤٣) راجع فى هذا الشأن وثائق فى أحكام أهل الذمة فى الأندلس مستخرجة من الأحكام الكبرى لابن سهل (ت٤٨٦هـ) تحقيق محمد عبد الوهاب خلاف. القاهرة المركز العربى الدولى للإعلام ١٩٨٠ ، والمعيار المغرب للونشريسى (ت٩١٤هـ) ، مخطوط بدار الكتب رقم ٩٠ فقه مالك ، م١ ورقة ١٧٣ أ ، ب ١٧٤ أ . م ٥ ورقة ٢٠٨ وانظر كتابنا « تاريخ النصارى فى الأندلس » . القاهرة ١٩٩٣ . ص ٨٨ - ٩٠ .

(٤٤) الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦ ، جـ١ ، ص ٣٦٤ - ٣٦٧ ، تر ١٠٧٠ .

وكان من جملة رجاله الترمذى وابن أبى خثيمة وعبد الله بن أحمد بن حنبل وعبد الله بن مسلم بن قتيبة ومحمد بن يزيد المبرد وأحمد بن يحيى بن يزيد ثعلب ، وبعد عودته إلى الأندلس ، سمع منه الخليفة عبد الرحمن الناصر وولده الحكم .

يستطرد ابن الفرضى فيقول « وطال عمره فسمع منه الشيوخ والكهول والأحداث . وألحق الصغار والكبار فى الأخذ عنه ، وكانت الرحلة فى الأندلس إليه ، وفى المشرق إلى أبى سعيد بن الأعرابى وكانا متكافئين فى السن » .

« وكان قاسم بن أصبغ بصيراً بالحديث والرجال ، نبيلاً فى النحو والغريب والشعر ، وكان يشاور فى الأحكام » .

الثانى هو قاسم بن أصبغ بن أبى الأسود بن عبد الواحد من أهل باجة « وكان من أهل الرواية والحديث ، وكان أديبًا بليغ اللسان جيد القلم ... » (٤٥).

الثالث حفيد للأول وهو قاسم بن محمد بن قاسم بن أصبغ بن محمد بن يوسف بن ناصح بن عطاء البيانى (ت٣٨٨/٩٩٨) « روى عن جده قاسم بن أصبغ ، وكان أديبًا حسن الخلق حليمًا استقضاه الحكم أمير المؤمنين رحمه الله على كورة تدمير ، واستقضاه المؤيد بالله

(٤٥) المصدر نفسه جـ١ ، ص ٣٦٧ ، تر ١٠٧١ .

أمير المؤمنين أعزه الله على مدينة الفرج ، وقد سمع منه جماعة من الناس ، وكتبت أنا عنه قديمًا وأجاز لى جميع ما رواه عن جده»[٤٦] .

نستبعد مبدئيًا قاسمًا الثانى ، فترجمته عند ابن الفرضى عامة وقصيرة ، ولا يهتم بذكر شيوخه ولا تلاميذه ، ولا كتب صنفها ، كما لا يهتم أيضًا بتحديد سنة وفاته . ونستبعد أيضًا قاسمًا الثالث ، فترجمته قصيرة ، ولا يذكر من شيوخه غير جده ، أما تلاميذه ، فجماعة من الناس دون تحديد ، ورغمًا عن أن ابن الفرضى سمع منه وأجازه ، فإنه لا يشير إلى كتب صنفها ، ناهيك عن كتاب ترجمه أو شارك فى ترجمته .

المرشح الوحيد ليكون مشاركًا فى ترجمة كتاب أوروسيوس أو مراجعته هو قاسم الأول ولنا عليه عدة ملاحظات .

١ ـ لم يرد فى أى من كتب التراجم الأندلسية[٤٧] وغير

---

(٤٦) المصدر نفسه جـ١ ، ص ٣٧٠ تر ١٠٧٩ .

(٤٧) مثل الحميدى : جدوة المقتبس ، القاهرة ١٩٦٦ . ص ٣٣٠ ـ ٣٣١ تر ٧٦٩ ، الضبى : بغية الملتمس ، القاهرة ١٩٦٦ . ص ٤٤٧ ـ ٤٤٨ تر ١٢٩٨ ، ابن فرحون : الديباج المذهب ، القاهرة ١٩٧٢ . جـ٢ ، ص١٤٦ ، المقرى : نفح الطيب ، تحقيق إحسان عباس . بيروت ١٩٦٨ . جـ٢ ، ص ٤٧ ـ ٤٩ تر ١٤ ، السيوطى : بغية الوعاة ، القاهرة ١٩٦٤ جـ٢ . ص ١٣١ .

الأندلسية ذكر لدور قام به فى ترجمة كتاب هروشيوش . وكان قمينآ بهـذه الكتب أن تنوه به لما كـان لقاسم من شهـرة فائقة فى عصره وما تلاه من عصور [٤٨] .

٢ ـ بل إن ابن حزم [٤٩] ـ وهو العالم الكبير الواسع الثقافة الملم بتراث إسبانيا القديم وتراث المسيحية ـ لا يشير إلى ذلك ، عندما تعرض لفضائل قومه ومآثرهم فى رسالته المشهورة .

٣ ـ ولا يرد فى كتب التراجم الأندلسية حديث عن معرفة قاسم باللغة اللاتينية من قريب ولا من بعيد ، وكان جديراً بها هذا الحديث، لأنها أوردت أخباراً عن معرفة غيره من علماء الأندلس بها [٥٠] .

---

(٤٨) خصوصًا وأن هذه الكتب تتحدث عن درايته الواسعة بعلم التاريخ . يقول ابن الفرضى « وانصرف قاسم بن أصبغ إلى الأندلس بعلم كثير ، ومال الناس إليه فى تاريخ أحد بن زهير وكتب ابن قتيبة ، وكانت الموردة عليه فى هذه الكتب دون صاحبيه محمد بن أيمن وابن أبى الأعلى » .

(٤٩) رسالته فى تفضيل الأندلس ، وأورد نصها المقرى فى نفحه جـ٢ وورد ذكر قاسم بها ، ص ١٦٩ ، ١٧٤ .

(٥٠) مثل القاضى سليمان بن أسود الذى ولى قضاء الأندلس مرتين فى عهد الأمير محمد ٢٣٨ / ٨٥٢ ـ ٢٧٣ / ٨٨٦ . الخشنى : قضاة قرطبة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦ . ص ٨٠ . كما كان الأمير عبد الرحمن الأوسط ٢٠٦ / ٨٢٢ ـ ٢٣٨ / ٨٥٢ يعرفها أيضًا . الزبيدى : طبقات النحويين واللغويين ، القاهرة ١٩٥٤ . ص ٢٨٧ .

٤ ـ والأهم من ذلك أن قاسمًا مات فى سنة ٣٤٠هـ عن سن عالية (٩٦ سنة) .

ويعلق ابن الفرضى الذى عاش فى مرحلة قريبة منه « وكان متمتعًا بذهنه لا ينكر عليه شيء إلا النسيان خاصةً ، إلى ذى الحجة سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة (٩٤٩م) ومن هذا التاريخ تغير وحال ذهنه إلى أن مات » .

معنى ذلك أن قاسم بن أصبغ ضعف نشاطه إلى حد كبير قبيل ورود كتاب أوروسيوس ، إلى الأندلس ، ثم توقف هذا النشاط تمامًا لدى وروده .

لم تحل المشكلة إذن . ونعاود قراءة نصى ابن خلدون . ونحاول أن نعرض لآراء من سبقنا إليهما .

- 4 -

يعد المستشرق الإيطالى ليفى ديلا ڤيدا Georgio Levi della Vida أول من تناول هذه المشكلة فى عام ١٩٥١(٥١) ، ثم عاد

---

(51) La tradizione araba della storia di Orosio . miscellanea G. Galbiati, III Milano 1951, pp. 185 - 203 .

وتناولها مع قدر من التفصيل فى عام ١٩٥٤[٥٢] ويلاحظ إنه :

١ ـ إذا كان خبر إرسال كتاب ديسقوريدس إلى الأندلس ممكناً ، فإن خبر إرسال كتاب أوروسيوس بعيد ، لأنه من المستبعد وجود مخطوطات لاتينية فى الدولة البيزنطية فى القرن العاشر .

٢ ـ يصعب أن يقوم قاسم بن أصبغ بدور فى نقل كتاب أوروسيوس إلى العربية بعد سنة ٣٣٧هـ ، بسبب تغير ذهنه ، ولذا يرجح أن هذه الترجمة ، تمت فى فترة مبكرة قبل ورود الكتاب إلى الأندلس ـ إذا كان قد ورد ـ ومن نسخة كانت موجودةً هناك .

٣ ـ تحدد عمل قاضى النصارى فى نقل الكتاب من اللاتينية إلى العربية ، وتحدد عمل قاسم بن أصبغ فى الصياغة العربية .

٤ ـ ويرجح أن قاضى النصارى هو حفص بن البر أو الوليد بن

---

(52) La Tradizione araba della storia di Orosio , Al - Andalus vol XIX, Fasc 2, pp. 257 - 265 .

وقد تعرض لهاتين الدراستين فؤاد سيد فى مقدمة تحقيقه لكتاب ابن جلجل طبقات الأطباء والحكماء . القاهرة ١٩٥٥ . ص ل ـ لب ، حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ، مدريد ١٩٦٧ . ص ٣٢ ـ ٣٩ ، عبد الرحمن بدوى فى مقدمة تحقيقه لكتاب أوروسيوس ، ص ١٧ ـ ٢٠ .

Van Koningsveld ; P. Sj : Latin Arabic Glossary of the Leiden University Library . Leiden 1977 , p. 56 .

خيزران (حيزون) ويدعوه ابن خلدون[٥٣] بالوليد ابن مغيث ، والأخير كان معاصراً للحكم المستنصر .

يلاحظ أن ليڤى ديلا ڤيدا فى سعيه للالتفاف حول نصى ابن خلدون ، ينحو نحواً توفيقياً ، لكننا لا نستطيع أن نتقبل رأيه كما هو ، ففيما عدا النقطة الأولى الخاصة بورود نسخة كتاب أوروسيوس أو عدم ورودها ، فإن ابن جلجل ـ وهو الكاتب المعاصر ـ الذى طالع النسخة العربية من الكتاب لا يشير إلى ترجمة مبكرة له ، أما عن مشاركة عالم مسلم أندلسى فى هذه الترجمة ، فأمر لا نجد له مثيلاً ، على الأقل خلال القرن الرابع الهجرى ، وبخصوص تحديد هوية قاضى النصارى ، فلا توجد نصوص قوية ، يستند إليها ليڤى ديلا ڤيدا .. ولنا عود إلى هاتين النقطتين .

فى عام ١٩٥٥ نشر الأستاذ فؤاد سيد تحقيقًا لكتاب ابن جلجل «طبقات الأطباء والحكماء» ، وقد قبل بمعظم ما جاء به ديلاڤيدا ، لكنه يضيف أن الترجمة تمت فى سنة ٣٣٦ أو ٣٣٧ ، أى عقيب وصول الكتاب ، وقبل أن يتغير ذهن قاسم بن أصبغ مباشرةً ، وقد سبق فى ذلك ترجمة كتاب ديسقوريدس التى تمت فى سنة ٣٤٠هـ لأن اللاتينية كانت أيسر فى الترجمة من اليونانية لشيوعها عند أهل الأندلس[٥٤] .

---

(٥٣) المصدر نفسه ، ص ١٤٥ .

(٥٤) ص لب من المقدمة .

على أن ما يذهب إليه فؤاد سيد لا يحل المشكلة ، لأنه حتى مع التسليم بأن الترجمة تمت عقيب وصول الكتاب مباشرةً ، فإن الضعف كان أصاب قاسم بن أصبغ الذى جاوز فى ذلك الحين عتبة التسعين .

ووجد رأى ديلا ڤيدا التأييد نفسه من الأستاذ حسين مؤنس فى كتابه الذى أصدره فى سنة ١٩٦٧ بعنوان « تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس » ويضيف مؤنس معلومةً جديدةً ، هى أن أحمد بن محمد الرازى المعروف بالتاريخى (ت ٣٤٤هـ) وهو تلميذ لقاسم بن أصبغ أخذ جغرافيته عن هروشيوش ، مع قدر من التطوير يتلاءم مع الظروف التى جدت بمقدم المسلمين (٥٥) .

نرى من ناحيتنا أن الربط بين الرازى ـ عبر قاسم بن أصبغ ـ وبين أوروسيوس ليس له ما يبرره ، ونرجح أن معلومات الرازى الجغرافية منقولة من مصادر أخرى غير أورسيوس ، أو غير الترجمة الأندلسية له . ونفصل ذلك بعد .

أخيراً فإن هؤلاء ـ ليڤى ڤيدا ، فؤاد سيد ، حسين مؤنس ـ لم يعطونا رأيًا محدداً فى نص ابن خلدون القائل بأن مترجمى كتاب أوروسيوس كانا من المسلمين .

---

(٥٥) ص ٣٩ وما بعدها .

فى عام ١٩٨٢ صدرت الترجمة العربية من كتاب أوروسيوس بعنوان « تاريخ العالم » ويرفض المحقق الفاضل الأستاذ عبد الرحمن بدوى[٥٦] نص ابن خلدون لأن قاضى النصارى ، لا بد وأن يكون نصرانيًا ، ويشير إلى واحد من كبار النصارى المعاصرين وهو أصبغ بن عبد الله بن نبيل الجاثليق ، وربما يكون ابن خلدون قد سها ، فكتب اسمه محرفًا ، بسبب شهرة قاسم بن أصبغ وسرعة وروده على الذاكرة، وينتهى بأننا لا نعرف حتى الآن من هو الذى ترجم كتاب أوروسيوس إلى العربية [٥٧].

وثمة رأى جدير بالدراسة ، أتى به باحث هولندى هو فان كوننجسفلد[٥٨] فى أطروحته لدرجة الدكتوراه من جامعة ليْدن فى سنة ١٩٧٦ ، فيدعى أن الكتاب كله من ترجمة قاضى النصارى وحده ودليله :

١ ـ من الغريب أن يتحدث ابن خلدون عن مترجمين، فيذكر مهنة أحدهما دون اسمه واسم الاخر دون مهنته .

---

(٥٦) ص ١٠ ـ ١٥ من المقدمة .

(٥٧) يرى بدوى أيضًا إنه إذا كان ثمة قاسم بن اصبغ شارك فى الترجمة ، فهو قاسم الثالث (ص١٣ من المقدمة) وهو رأى لا نوافقه عليه ، راجع ما سبق وذكرناه بخصوصه .

(58) Op. cit., pp. 57 - 59 .

٢ ـ ابن جلجل يلمح ـ من خلال رسالة ملك الروم إلى الخليفة الناصر ـ بأن ترجمة الكتاب من نصيب الدوائر النصرانية التى لها دراية باللاتينية .

٣ ـ الأهم من ذلك كله أن النص الأول لابن خلدون ورد فى مخطوط العبر بليدن[٥٩] وفى مخطوطه الاخر بالمتحف البريطانى[٦٠] كالآتى « وما نقله أيضاً هر وشيوش مؤرخ الروم فى كتابه الذى ترجمه للحكم المستنصر من بنى أمية قاضى النصارى وترجمانهم بقرطبة قاسم ابن أصبغ » . فلا توجد واو عطف سابقة لقاسم بن أصبغ ، وذلك بخلاف طبعة بولاق ، ولذا يصير لدينا مترجم واحد لا مترجمان .

فى تقديرنا أن رأى الباحث الهولندى يجعلنا على أول الطريق لاستكشاف شخصية المترجم أو المترجمين لكتاب أوروسيوس ، رغماً عن إنه يطرح هذا الرأى على نحو عام ، بحكم أن قضية هذا الكتاب قضية جانبية فى أطروحته .

بيد أن هذا الرأى لا يحسم المشكلة تماماً ، وربما لم يكن الخطأ فى طبعة بولاق وإنما فى مخطوطى ليدن والمتحف البريطانى ، ثم إنه

---

(٥٩) ورقمه Cod, or. 1350 .

(٦٠) ورقمه Add, 23. 271 .

مع التسليم برأى الباحث ، فإنه لا يحل مشكلة النص الآخر لابن خلدون ، كما إنه ليس لدينا معلومات عن قاض نصرانى يدعى قاسم بن أصبغ .

ونعيد ترتيب الأوراق .

- 5 -

١ ـ نستبعد بداءةً دوراً لقاسم بن أصبغ فى ترجمة كتاب أوروسيوس لأنه لم يكن يعرف اللاتينية ، ونستبعد أيضًا مراجعته الصياغة العربية فى سنة ٣٣٦ (أو ٣٣٧) لأنه وإن لم يتغير ذهنه حتى ذلك الحين ، إلا أنه كان شيخًا كبيراً جاوز التسعين من عمره وكان قد ضعف نشاطه .

وبذا يسقط احتمال أن يكون قاسم بن أصبغ مترجمًا لكتاب أوروسيوس أو مراجعاً له .

٢ ـ ولا مجال للتعسف والربط بين الرازى[٦١] وبين كتاب

(٦١) راجع فى ترجمته ابن الفرضى : المصدر نفسه ، جـ١ ، ص ٤٢ تر ١٣٧ وكذلك الحميدى جذوة المقتبس ، ص ١٠٤ تر ١٧٥ . وقد ترجم تاريخ الرازى إلى البرتغالية (ربما فى أوائل القرن الرابع عشر) وإلى الإسبانية فى سنة ١٣٤٤ على يدى خيل بريث واشتهر باسم La Cronica del =

أوروسيوس عبر قاسم بن أصبغ ـ والذى أخذ عليه الرازى ـ فالرازى ولد فى سنة ٨٨٨/٢٧٤ ومـــات فى سنة ٩٥٥/٣٤٤ ، أى إنه بلغ أوج نشاطه قبل ورود كتاب أوروسيوس بسنوات طويلة ،أنشأ خلالها كتبه التاريخية ، وهو إذا كان قد أخذ عن قاسم بن أصبغ ، فإن كثيراً من أعلام عصره أخذوا عنه ، ثم إن الرازى لا يشير فى كتابه ولا فى النقول المأخوذة عنه إلى أوروسيوس .

وإذا كان مؤنس يستند إلى بعض أوجه التشابه بين جغرافية الرازى وبين جغرافية أوروسيوس ، من حيث تقسيم الأندلس (أو إسبانيا) إلى أندلسيين أو (إسبانيتين) فإن تقسيم الرازى من منطلق جغرافى ، فى حين أن تقسيم أوروسيوس من منطلق سياسى ، وجغرافية الأندلس لا تفوز من أوروسيوس (الترجمة الأندلسية) بأكثر من خمسة عشر سطراً [٦٢] ، ولا تفوز من أوروسيوس « الأصل اللاتينى » بأكثر من سبعة عشر سطراً [٦٣] ، لكنها فى المقرى [٦٤] ـ وهو ينقل عن الرازى ـ ثلاثة وثلاثون سطراً . وإذا كان الرازى ـ وهو مؤرخ ـ ينقل عن

= Moro Rasis وضاع أصله العربى راجع :

Diccionario de Historia de España, tomo l, p. 813 .

(٦٢) ص ٦٧ ـ ٦٨ .

(٦٣) راجع نشرة تسانجمايستر الكتاب الأول ، الفقرة ٣ ، بنود ٦٩ ـ ٧٤ .

(٦٤) المصدر نفسه ، جـ١ ، ص١٢٩ ـ ١٣١ .

أوروسيوس ـ وهو مؤرخ مثله ـ فقد كان أحرى به أن يركز على التاريخ ، ونلاحظ فى النقول عن الرازى ـ فى المقرى مثلا[٦٥] ـ عدم وجود هذا التأثير ، فأخبار الأندلس فى عهد أُكتيبان (يقصد أكتافيانوس) لا نجد لها مقابلاً فى الترجمة الأندلسية لأوروسيوس .

وإذا كان الرازى قد تأثر بأوروسيوس أو نقل عنه ، فمن الممكن أن يكون ذلك قد تم من خلال نصارى شبه الجزيرة المستعربين ، الذين كانوا على معرفة بكتاب أوروسيوس لشهرته ، وليس من خلال النقل من الترجمة العربية .

وعلى ذلك لا يكون الرازى ـ كما يذهب مؤنس ـ هو أول من استفاد من أوروسيوس وإنما هو ابن جلجل ـ على نحو مبتسر ـ ويبدأ النقل عن أوروسيوس بوضوح فى مرحلة متأخرة نسبيًا ، أبرز ممثليها البكرى (ت ٤٨٧ / ١٠٩٤) .

وبذا يسقط أيضًا احتمال أن يكون الكتاب قد ترجم فى وقت مبكر .

٣ ـ كما نستبعد دوراً لأحد آخر من المسلمين الأندلسيين فى ترجمة كتاب أوروسيوس وهو أمر نجد مشابهًا له فى المشرق ، إذ كان يضطلع بمهمة الترجمة عن اليونانية قوم نصارى من أصول

---

(٦٥) المصدر نفسه ، جـ١ ، ص ٤٨١ .

سريانية أو رومية على نحو أساسى . والدور الذى نهض به عريب بن سعد (ت٣٦٦هـ) ـ وهو مسلم من أصل نصرانى ـ فى التقويم القرطبى يتحدد فى كتابة النص العربى ، فى حين نهض ربيع بن زيد Recemundo الأسقف النصرانى بكتابة النص اللاتينى ، أو إنه كتب نصاً عربياً ترجم بعد ذلك إلى اللاتينية ، ويتفوق هذا النص فى حجمه على النص العربى .

٤ ـ ولا يجوز أيضًا أن يراجع عالم مسلم ثقافته تدور على نحو أساسى فى مجال العلوم الإسلامية نصًا تاريخيًا ذا طابع نصرانى ، من إنشاء حبر نصرانى ، أهداه إلى حبر نصرانى آخر أكبر منه ، بهدف نفى مسئولية النصرانية عن زوال الإمبراطورية الرومانية . وغصت هذه الترجمة ينقول عديدة ، لم تكن موجودة فى الكتاب أصلاً ، وبعضها عن يوسابيوس القيسرانى والقديس جيروم ، صاحب الترجمة المشهورة للكتاب المقدس Vulgata وغيرهما من أحبار الكنيسة (٦٦) .

---

(٦٦) من هذه النقول ما يرد بشأن خلق العالم ، وإن الله تعالى خلقه فى ستة أيام، وارتاح فى اليوم السابع (السبت) ص ٨٢ وهذه المعلومة تختلف عما يعتقده المسلمون ، وما يرد أيضاً بشأن صلب المسيح عليه السلام ، فلم يكن لعالم مسلم أن يتركه كما هو دون تعليقة من عنده ، بل إن هذا الخبر يرتبط بأبيات شعرية ينسبها المترجم إلى شاعر رومانى دعاه مركس ، هذه الأبيات بعضها مكسور ، ص ٤٢١ ـ ٤٢٢ وهو أمر غريب على قاسم بن أصبغ أو غيره .

بل إن الصلة التى أضيفت إلى كتاب أوروسيوس ، والخاصة بملوك القوط ، يغلب أنها منقولة عن تواريخ ايسيدور [٦٧] ، الذى عرفه العرب بأشيذر (ت٦٣٦م) وايسيدور هذا كان مطراناً لإشبيلية وسجل قديساً فيما بعد ، وللأسف ضاعت هذه النقول من جملة ما ضاع من النسخة الأندلسية .

٥ ـ إذن فالذى قام على ترجمة كتاب أوروسيوس لا بد وأن يكون نصرانياً ، وهذا المترجم ليس بحاجة إلى زميل له مسلم ، يعينه فى الترجمة ، فمن النصارى من كان على دراية واسعة باللغة العربية وبراعة فيها ، استلفتت نظر ألبرو Alvaro القرطبى قبل مائة عام أو نحوها ، وجعلته يتحسر على انصراف شباب جيله عن لغته اللاتينية الأم إلى لغة أخرى أجنبية عنهم [٦٨] .

٦ ـ إذا نحن راجعنا تاريخ الأندلس فى عصر الخلافة . نلاحظ أن البعوث والسفارات الأندلسية إلى الممالك النصرانية خارج الأندلس ،

---

(٦٧) Isidorus Hispalensis صار مطراناً لإشبيلية فى سنة ٦٠١م وترأس مجمع طليطلة الدينى فى سنة ٦٣٣م وله عدة كتب أهمها الأصول Origines أو Etymologiae وهو أشبه بموسوعة علمية كبيرة ، كما إن له كتبًا فى التاريخ حظيت بعناية المؤرخ مومسين وأهمها الحوليات Chronica
راجع : Diccionario tomo II, 173 .

(68) Simonet : op. cit., pp. 369 - 371 .

بل وخارج شبه الجزيرة ، كان يقوم بها قوم من نصارى الأندلس ـ قوامس ورجال دين وقضاة ـ حصراً ، وليس لدينا فى مصادرنا إشارة إلى أن قام بها مسلمون .

٧ ـ نفترض أنه كان فى الأندلس نسخ من الأصل اللاتينى لكتاب أوروسيوس لم يتنبه إليها أحد من المسلمين إلا بعد وصول هدية ملك الروم ، فكانت حافزاً قويًا إلى الترجمة ولدى ولاية الحكم المستنصر فى سنة ٩٦١/٣٥٠ أمر بعض النصارى بترجمة هذا الكتاب إلى العربية .

الكتاب ترجم إذن بعد سنة ٣٥٠هـ ، ويبقى بعد ذلك أن نحدد شخصية المترجم أو المترجمين .

- 6 -

نرشح ـ وغيرنا ـ لترجمة كتاب التواريخ لأوروسيوس واحداً (أو اثنين) من أربعة من قضاة النصارى ورجال دينهم ، هم حفص بن البر ، الوليد بن خيزران (أو حيزون) ، أصبغ بن عبد الله بن نبيل ، عبيد الله بن قاسم .

أما أولهم وهو حفص بن البر ، فهو من عائلة غيطشة Witiza ملك القوط الذى أعان ولده العرب ضد رذريق Ruderiucs مغتصب عرش أبيهم ، فأجازوهم ضياعهم الفسيحة فى أنحاء الأندلس ، وعدتها

ثلاثة آلاف ضيعة ، وولد غيطشة هؤلاء هم أرطباس Ardabasto ، أُلمند Olemundo ووَقله Aquila (أو رُمُلُه Romulo) (٦٩) .

يهمنا فى هذا المقام وقله الذى داعبه الأمل فى استعادة ملك القوط فثار ضد العرب بمدينة طركونه Tarragona وحاصره المسلمون عدة سنوات إلى أن استسلم على يدى عَنْبَسة بن سُحَيْم الكلبى والى الأندلس (١٠٣ / ٧٢١ ـ ١٠٧ / ٧٢٥) ، وانتــقل إلى طليطلة ، حيث استعرب ولده وأضحى حفيده البعيد حفص بن البر قاضيًا للنصارى (٧٠) .

كان لحفص اسهامه الواضح فى ثقافة قومه من المستعربين ، فقد صنف كتبًا فى العقائد ، استعان بها بعض النصارى فى محاجاتهم المسلمين ، ويتضح من اقتباسات الإمام القرطبى ، فى ردوده على هؤلاء أنه كان لحفص كتابان ، هما المسائل والحروف ، ويضيف القرطبى (٧١) قــائلاً : « إن هذا القس الذى هو حــفص ، هو من أكيسهم وأفصحهم ، إذ كان قد نشأ فى ذمة المسلمين وتعلم من علومهم ما فاق به النصارى » .

---

(٦٩) انظر ما ورد بشأن هؤلاء فى أخبار مجموعة ، ص ٧ ـ ٩ وفى ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس ، تحقيق إبراهيم الإبيارى ، القاهرة ، دار الكتب الإسلامية . ١٩٨٢ ، ص ٢٩ ـ ٣٢ .

(70) Simonet : op. cit., pp. 170 - 171 .

(٧١) الإعلام ، ص ٤٢٢ .

اشتهر حفص أيضاً بأنه نظم مزامير داود على بحر الرجز ، والنسخة الوحيدة من هذه الأرجوزة ،محفوظة فى مكتبة أمبروسيو بمدينة ميلانو(٧٢). وفى المقدمة الشعرية للأرجوزة ، يوضح حفص السبب فى نظمه للمزامير ، بأن الترجمات السابقة النثرية أفسدت جمالها ، لذا جنح إلى نظمها على بحر الرجز المشطور (٧٣)، وهو بحر مناسب ، يشبه البحور الأعجمية (اللاتينية) وبخاصة بحر ينبّق (٧٤).

نعود إلى موضوعنا ونتساءل ، ما دام حفص قد برز فى علوم النصرانية ، وفى اللغة العربية ، وفى الوقت نفسه شغل منصب قاضى النصارى ، فهل هو القاضى الذى ترجم (أو شارك فى ترجمة) كتاب أوروسيوس .

نستبعد أن يكون حفص هو هذا القاضى ، فمن تحليل القيمة العددية للبيت رقم ١٢٨ من الأرجوزة ، يتضح أنه أنهى عمله فى سنة ٩٨٩(٧٥) من تاريخ الصُفْرَ وهو ما يعادل سنة ٩٥١م (= ٣٣٩ - ٣٤٠هـ) ، وإذا كان قريبه المسلم المؤرخ ابن القوطية(٧٦) قد توفى فى سنة ٩٧٧/٣٦٧ فإنه يكون معاصراً له .

---

(٧٢) برقم IX Teologia Cristiana No. 86 .

(٧٣) مستفعلن مستفعلن مستفعلن .

(٧٤) يقصد البحر السداسى أو اليامبى Iambus .

(75) Dunlop, D. M : Hafs b. Albar. the last of the Goths, J. R. A. S. 1954. pp. 147 - 148 .

(٧٦) وهو حفيد بعيد لسارة إبنة ألمند بن غيطشة .

لكن ابن القوطية لدى ذكره حفصاً لا يشير إلى ترجمة قام بها لكتاب أوروسيوس وكان قميناً به هذه الإشارة لأنه مؤرخ وأوروسيوس أيضاً مؤرخ .

أما وليد بن خيزران (أو حيزون) ويدعوه ابن خلدون بوليد بن مغيث ، فيوجد خبر عنه فى أحداث سنة ٣٥١ / ٩٦٢ ، لدى استقبال الحكم المستنصر لأردون بن أذفونش[٧٧] المنازع لابن عمه شانجُه بن رذمير ملك ليون [٧٨] .

يقول ابن حيان[٧٩] أن أردون أتى « وقد حفته جماعة من نصارى وجوه الذمة بالأندلس يونسونه ويبصرونه ، فيهم وليد بن خيزران (حيزون) قاضى النصارى بقرطبة ، وعبيد الله بن قاسم مطران طليطلة وغيرهما » .

يستطرد ابن حيان[٨٠] بعد عدة سطور ، فيقول أن أردون بعد أن قبّل - وصحبه - يد الخليفة « وصل بوصولهم وليد بن خيزران قاضى النصارى بقرطبة فكان الترجمان عن الملك أردون ذلك اليوم » .

---

(٧٧) أُردونيو الرابع Ordoño ٩٥٨ - ٩٦٠ .

(٧٨) سانتشو الأول Sancho I ٩٥٦ - ٩٦٦ .

(٧٩) المقرى : المصدر نفسه ، جـ١ ، ص ٣٩٠ .

(٨٠) ص ٣٩١ .

نشك فى أن يكون ابن خيزران هو المترجم لكتاب أوروسيوس ، فهو كما يبدو من السياق كان قاضيًا للنصارى فى هذه السنة (٣٥١هـ) وربما ولى القضاة قبل ولاية المستنصر ، ولا نشاهد اسمه مرة أخرى فى الترجمة للبعوث ، ويترجح أن يكون الكتاب قد ترجم بعد سنوات من تولية الحكم وليس بعيد توليته ،وينفرد ابن خلدون ، فيدعو هذا القاضى بوليد بن مغيث ، وهو خطأ لم يكن ليقع فيه إذا كان هو مترجم كتاب أوروسيوس .

أما أصبغ بن عبد الله بن نبيل وعبيد الله بن قاسم ، فتوجد إشارتان إليهما فى ابن حيان [٨١] ، ففى أحداث سنة ٩٧١/٣٦٠ وافت الحكم عدة سفارات من ملوك إسبانيا النصرانية وأمرائها ، ومنهم حلويرة Elvira ابنة رذمير ، حاضنة رذمير بن شانجُه صاحب جليقية[٨٢] « وتوصل مع العجم من كبار نصارى قرطبة قاضيهم أصبغ بن نبيل ، وأسقفهم عيسى بن المنصور ، وقومسهم معاوية بن لب ، ومطران إشبيلية عبيد الله بن قاسم ، يترجمون عنهم ولهم ،

---

(٨١) المقتبس . قطعة من عهد المستنصر . تحقيق عبد الرحمن الحجى ، بيروت، دار الثقافة ١٩٦٥ . ص ٦٤ .

(٨٢) راميرو الثالث Ramiro III ٩٦٦ ـ ٩٨٤ وكان صغير السن وتولت عمته الراهبة إلبيرا الوصاية عليه .

ففهم الخليفة ما أدوه عن مرسليهم ، وأجمل الرد عليهم فانطلقوا لسبيلهم » .

هناك نص آخر(٨٣) أهم من هذا النص ، فقد عاود الحكم رسل حلويرة فى سنة ٩٧٣/٣٦٣ . يقول ابن حيان « وتوصل إليه بعدهم رسل حلويرة عمة الطاغية أمير جليقية وكافلته ، فتكلموا عن مرسلتهم بكلام بدا فيه بعض الجفاء ، ترجمه نصًا عنهم أصبغ بن عبد الله بن نبيل ، قاضى النصارى بقرطبة المتولى ذلك عن الأعاجم ، أنكره الخليفة لوقته ،فازور للمترجم ونهره ، وأمر بتأخير الرسل عنه ، ونالهم ببعض التوبيخ ، وألزم أصبغ المترجم ذنبه ، وأمر بإقصائه وعزله عن قضاء النصارى وإهانته ، وتعريف الرسل بسوء ما أداه عنهم . فقعد لهم صاحب الخيل زياد بن أفلح فى بيته بدار الجند ، وعركهم وعرفهم أنه لولا احتجازهم بذمة الرسالة لعوجلوا بالعقوبة ، وخص المترجم أصبغ بالملامة ، لإقدامه على ما أقدم عليه من سوء المخاطبة ، وخصه بأشد الوعيد ،وعرفه بما كان قد هم به أمير المؤمنين فيه ، من غليظ العقاب والتشديد ، لتركه تأديب هؤلاء الأعلاج ، وتثقيف ما يلقونه إليه من كلامهم ، إذ كان المقلد ذلك منهم ومن أمثالهم من رسل الطواغيت، لولا ما أعقبه من الصفح عنه ، ونفذ العهد إلى أحمد بن عروس

---

(٨٣) المصدر نفسه ، ص ١٤٦ ـ ١٤٧ .

المُوروري المتفقه بالخروج إلى جليقية، رسولاً إلى العلجة حلويرة ، مع رسلها المنقلبين عن قرطبة وضم إليه عبيد الله بن قاسم المطران المترجم ، فخرجا مع الرسل الصادرين عنها ، فى عقب صفر المؤرخ ، وكان محمد بن مطرف يومئذ بناحية الغرب ، فخوطب يؤمر بالدخول معهما » .

نخرج من هذين النصين بالآتى :

١ ـ كان أصبغ بن عبد الله بن نبيل قاضيًا للنصارى فى الفترة من سنة ٣٦٠ إلى سنة ٣٦٣ ، وربما يعود تولية القضاء إلى تاريخ أقدم(٨٤) ، وزاول الترجمة عندما كان يصدر له تكليف بذلك ، وإن وردت الإشارة إلى ذلك مرتين فقط .

٢ ـ وأثبت براعة فى الترجمة وأمانة ، جعلته ينقل عن لسان سفراء حلويرة ما لا يجوز نقله ، لدرجة كادت تودى بحياته وأفقدته منصبه .

٣ ـ وعاصر أصبغ هذا نصرانى آخر هو عبيد الله بن قاسم الذى

---

(٨٤) لم يصلنا من مقتبس ابن حيان ـ فيما يختص بالحكم المستنصر ـ سوى أخبار خمس سنوات ٣٦٠ ـ ٣٦٥ وبعض هذه السنوات غير كاملة ، وربما ورد فيما ضاع من أوراق هذا المؤرخ ما يفيدنا فى التعرف على قضاة النصارى وقساوستهم فى عهد الخليفة المذكور .

كان مطرانًا لطليطلة فى سنة ٣٥١ ، ثم نجده مطرانًا لإشبيلية فى سنة ٣٦٠ كما كان مطرانًا (دون تحديد لاسم مطرانيته) فى سنة ٣٦٣ ، وربما استمر مطرانًا سنوات أخرى تالية .

٤ ـ وتوجد ثلاث إشارات إلى دوره فى الترجمة للدولة ، آخرها أنه صاحب رسل حلويرة فى سنة ٣٦٣ فى رحلتهم إلى بلادهم موفدًا من قبل الخليفة الحكم .

٥ ـ ولا يبعد أنه كان على إحاطة بتراث مواطنه الإشبيلى القديس ايسيدور ذى الشهرة الفائقة فى أنحاء إسبانيا وأوربا ، وترجمت بعض كتبه إلى العربية (٨٥)، والجزء الأخير من كتاب أوروسيوس فيه نقول عنه على الأرجح ، وإن لم تكن وصلتنا (٨٦) .

٦ ـ الاثنان معًا ـ أصبغ بن نبيل وعبيد الله بن قاسم ـ يجيدان اللغتين العربية واللاتينية ، ويجيدان أيضًا الترجمة من إحداهما إلى الأخرى ،ومقربان إلى الخليفة وموضع لثقته ، ويرتبط ذكر الواحد منهما بالآخر ، وإذا كانا يتعاونان فى الترجمة فى المهام الرسمية ، فمن الممكن أن يتعاونا فى الترجمة فى مهام أخرى .

---

(٨٥) هناك دلائل على أن كتاب الأصول لإيسيدور ترجم إلى العربية حوالى منتصف القرن الرابع الهجرى .

Van Koningsveld : op. cit p. 60 .

(٨٦) بطبيعة الحال فإن المترجم النصرانى ـ خصوصًا إذا ما كان إشبيليًا ـ يصير أعرف بكتب إيسيدور من غيره من المسلمين .

نرجح أن الترجمة من عمل أحد اثنين أصبغ بن عبد الله بن نبيل أو عبيد الله بن قاسم أو هما معًا ، وإذا كان نص ابن خلدون يشير إلى شخص يدعى قاسم بن أصبغ فلا توجد فى مصادرنا - عربية ولاتينية - قاض نصرانى بهذا الاسم ، ونرجح أن الأمر اختلط عليه - وهو يكتب بعد فترة طويلة - فأتى باسم يجمع بين الإثنين ويتطابق فى الوقت نفسه مع اسم أندلسى مسلم جليل ، تواصلت شهرته إلى زمانه، وكان حاضراً فى ذهنه وهو يكتب هذا النص .

ويحل ذلك مشكلة حرف الواو التى يذكرها الباحث الهولندى ، ففى حال حذفها يترجح المترجم فى أحدهما ، وفى حال إثباتها - ويغلب إنها كذلك - يترجح أن الترجمة من عملهما معًا ، وفى ذلك تفسير لنص ابن خلدون الآخر الذى يقرر أن الترجمة من عمل الاثنين .

أما عن كونهما مسلمين ، فإن هذا النص تفصله عن النص الأول صفحات كثيرة ، ربما جعلت ابن خلدون ينسى ما ذكره أولاً ، ثم إنه إلى جانب ذلك غير دقيق فى تاريخه دقته فى مقدمته ، والإضافة الأساسية فى تاريخه هذا ما كتبه عن المغرب والبربر على نحو خاص ، وهو ينسب إلى أوروسيوس أخباراً لا نجدها فى الترجمة الأندلسية ولا فى النص الأصلى .

- 7 -

ننتهى فى هذا البحث إلى الآتى :

شهدت الأندلس نهضةً فكريةً عظيمة فى القرن الرابع الهجرى ـ العاشر الميلادى ـ بتوجيه من الخليفتين العظيمتين عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر شارك فيها نصارى الأندلس المستعربون ، ونقلوا إلى اللغة العربية ، التى أضحت على نحو أساسى لغتهم ، ما يهمهم من كتب دينية ، وما يهمهم ويهم المسلمين فى الوقت نفسه من كتب فى مجالات أخرى .

وكان كتاب پاولوس أوروسيوس فى التاريخ ، أحد هذه الكتب التى ترجمت إلى اللغة العربية حوالى سنة ٣٦٠هـ ، واحتفظت الترجمة العربية بطابع دينى واضح يتناسب مع روح التسامح السائدة فى ذلك الوقت ، بل إن المترجم النصرانى ، أضاف إلى النص الأصلى نقولاً من كتاب كنسيين قدامى ، ومن كتاب كنسيين عاصروا حكم القوط .

ويترجح أن هذه الترجمة من عمل القاضى أصبغ بن عبد الله بن نبيل أو المطران عبيد الله بن قاسم أو هما معاً .

ولا نستطيع أن ننتقل من الترجيح إلى القطع ، إلا بتوصلنا إلى نسخة أخرى عربية من هذا الكتاب .

الفصل الثالث

مصر ومشروع عبد الرحمن الداخل في بعث الخلافة الأموية بالمشرق*

فى سنة ١٣٢ / ٧٥٠ إقتحم أبو مسلم الخراسانى مدينة الكوفة ، وسلم على أبى العباس الذى دعى بالسفاح بالخلافة .

وفى سنة ١٣٨ / ٧٥٥ ، إقتحم عبد الرحمن الداخل شبه الجزيرة الأندلسية وأقام الإمارة الأموية بها .

وفى سنة ٣١٦ / ٩٢٩ ، أعلن عبد الرحمن الثالث الخلافة الأموية بالأندلس وتسمى بالناصر لدين الله .

السؤال الآن .. هل كان عبد الرحمن الداخل يطمح فى بعث الخلافة الأموية بالمشرق ؟

يلوح لنا إن هذا الطموح صحيح ، ولا يمنع منه أن لم يوفق صاحبه فى تحقيقه ، ولدينا عليه شواهد .

(*) قدمت هذه الدراسة إلى ندوة « مصر وعالم البحر المتوسط » التى عقدت بكلية الآداب جامعة القاهرة فى الفترة من ١٣ ـ ١٥ ابريل ١٩٨٥ ، ونشرت فى الكتاب الجامع لأعمال هذه الندوة ، القاهرة ، دار فكر ١٩٨٦ .

- 1 -

كان التصور العام فى الفقه السياسى الإسلامى ، أن دار الإسلام ـ وإن تعددت سياسيًا ـ إلا إنها فى النهاية دار واحدة ، لا يجوز أن يقوم عليها إلا خليفة واحد فى وقت واحد .

صحيح إنه ظهر فى مرحلة متأخرة مبدأ آخر يجيز إقامة إمامين (أو خليفتين) فى وقت واحد ، لكن هذا المبدأ لم يلق قبولاً عند جمهور المسلمين [١]، ثم إنه لا يتعاصر مع عبد الرحمن الداخل ، وربما كان ظهور هذا المبدأ ، تبريراً لأوضاع ناشئة ، ليس ثم مجال لنقضها .

وإذا كان الخوارج من الصفرية ، قد أنشئوا لأنفسهم دولةً فى سَجِلْماسة هى دولة بنى مِدْرار ، إلا أن هذه الدولة قامت فى سنة ١٤٠ / ٧٥٧ [٢]، أى بعد أن قامت دولة الداخل ، ولم يتلقب أمراؤها بالخلافة ، وإن تلقبوا بالإمامة ، ودعا بعضهم للعباسيين[٣] ، وعلى النهج نفسه سار الأدارسة الذين أقاموا دولتهم فى سنة ١٧٢ / ٧٨٨ .

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ، تحقيق محمد فهمى السرجانى ، القاهرة ، المكتبة التوفيقية ١٩٧٨ ، ص ٩ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب . تحقيق ليفى پروفنسال . بيروت ، دار الثقافة ١٩٦٧ . جـ١ ، ص ١٥٦ .

(٣) ابن خلدون : كتاب العبر . بولاق ١٢٨٤هـ . جـ٦ ، ص ١٣ .

وتسموا بالإمامة (٤) ، ودعا بعض أمرائهم للامويين (٥) .

على أن تسمى الفاطميين بالخلافة ، لم ينسخ مبدأ واحدية هذه الخلافة ، وادعاؤهم أنفسهم لها إنما كان نفيًا ـ من وجهة نظر التيار الذى يمثلونه ـ لادعاء غيرهم ، ومن هنا ناهضوا الأمويين بالمغرب ، قبل إعلان الناصر خلافته وبعده ، وناهضوا أيضًا العباسيين بالمشرق ، الأمر الذى أسفر فى مرحلة متأخرة عن الخطبة للمستنصر الفاطمى على منابر بغداد نفسها (٦) .

وكان إدراك عبد الرحمن الداخل لمبدأ واحدية الخلافة يحتم عليه أحد أمرين ، إما أن ينزوى فى أقصى المغرب ، ويدعو لنفسه بالإمارة وحدها ، أو أن يجاوز ذلك فيدعو لنفسه بالخلافة ، نافياً لحق العباسيين فيها .

إستطاع عبد الرحمن أن يحقق الإختيار الأول ، وهو أن يستولى على بلاد الأندلس ويصبح أميراً لها ، لكن هذا الاستيلاء ، كان لا بد

---

(٤) ابن خلدون : المقدمة ، تحقيق وافى . القاهرة ، لجنة البيان العربى ١٩٧٩ ، جـ٢ ، ص ٦٣٩ .

(٥) ابن عذارى : المصدر نفسه . جـ٢ ، ص ٢١٢ .

(٦) فى سنة ٤٥٠هـ إبان الحركة المعروفة بحركة البساسيرى . راجع تفاصيل هذه الحركة فى محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، القاهرة ، دار الفكر العربى .

له من غطاء شرعى يبرره ، أى إعتراف من الخليفة به ، وهو ما فعله بعد سنوات إبراهيم بن الأغلب الذى استولى على الإمارة فى إفريقية فى سنة ١٨٤/٨٠٠ ، ثم أتاه تفويض الخليفة الرشيد يقره على أمره (٧).

عندما نقلب فى مصادرنا ، لا نجد فيها ما يوضح أن عبد الرحمن سعى من أجل أن يحصل على تقليد من الخليفة أبى جعفر المنصور ، وكان حرياً به أن لا يفعل ، فلم يكن المنصور ليستجيب ، ولم يكن عبد الرحمن أصلاً ليسأل .

إذن كيف يبرر عبد الرحمن وضعه السياسى الفريد هذا . وهو وضع غير مسبوق ؟

يقفز إلى الذهن نموذج الأدارسة ، فهؤلاء انفردوا بالمغرب الأقصى منذ سنة ١٧٢ ولم يحصل أحد منهم على تقليد من الخليفة العباسى، ولم يدع له ابتداءً .

لم يكن نموذج الأدارسة حاضراً فى ذهن عبد الرحمن ، حين شرع فى بناء دولته لأن إدريس الأول ، تطرق إلى بلاد المغرب فى عام وفاة الداخل نفسه .

---

(٧) ابن عذارى : المصدر نفسه . جـ١ ، ص ٩٢ ، النويرى : نهاية الأرب جـ٢٤ ، تحقيق حسين نصار ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٣ . ص١٠٠ ـ ١٠٢ .

توصل عبد الرحمن إلى حل جزئى لهذه المشكلة ، وهو أن يدعو للخليفة المعاصر له(٨) دون أن يصحب هذه الدعوة ، اعتراف من الخليفة نفسه به .

أقدم عبد الرحمن على هذه الخطوة ، رغمًا عما فعله العباسيون ببنى أمية ، من إزالة ملكهم ، وتتبعهم قاصيهم ودانيهم والبطش بهم .

كان منطلق عبد الرحمن هو أن يرضى جمهور المسلمين ، خصوصًا ؛ وإن البلاد كانت قد ضجت على مدى سنتين قبيل دخوله ، بثورة نهض بها اثنان من القرشيين سوّدا ، وأعلنا الطاعة لبنى العباس ، وكادا يخرجا الأمر من يدى يوسف الفهرى آخر ولاة الأندلس (٩) .

على أن سعى عبد الرحمن لإرضاء جمهور المسلمين ، لم يكن

---

(٨) ابن الأبّار : الحلة السِّيَراء : تحقيق حسين مؤنس ، القاهرة ، الشركة العربية للطباعة والنشر ١٩٦٣ ، جـ١ . ص ٣٥ ، تر ٨ ، المقرى : نفح الطيب ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ، دار صادر م ٣ . ص ٥٩ .

(٩) راجع بخصوص هذه الثورة : أخبار مجموعة فى فتح الأندلس ، نشر لافوينتى ألكنترا . مدريد ١٨٦٧ . ص ٦٣ وما بعدها ، ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس . تحقيق إبراهيم الإبيارى ، القاهرة ، دار الكتب الإسلامية ١٩٨٢ . ص ٤٦ وما بعدها .

ليتطابق فى الوقت نفسه مع سعيه لإرضاء جمهور بنى أمية ومواليهم ، وهؤلاء نهضوا بدولته حال دخوله ، ثم توافدوا على البلاد بأعداد كبيرة بعد ذلك ، وخاصةً فى سنة ١٤٠هـ[١٠] وشكلوا ـ وقد صاروا عدة آلاف ـ جماعة ضغط جعلته يقطع الخطبة للمنصور فى هذا العام المؤرخ .

كان هناك تناقض ، وكان على الداخل أن يحسم هذا التناقض .

تحدثنا المصادر أن الداخل دعا للمنصور عدة شهور تقل عن العام، ونذهب من ناحيتنا فنمتد بهذه الدعوة إلى سنتين أو نحوهما ، لأن هذه المصادر نفسها ، تقرر أن عبد الرحمن قطع الدعوة للعباسيين ، بعد إلحاح من أحد أقربائه ، وهو عبد الملك بن عمر بن مروان [١١] .

دعى عبد الملك هذا بقُعْدُد[١٢] بنى أمية وشهاب آل مروان ، وقد دخل الأندلس مع آخرين من أهل بيته فى سنة ١٤٠هـ ، واستعان به عبد الرحمن فى القضاء على فتنة يوسف الفهرى الذى انتقض فى العام التالى . وقد بلغ من حماسة عبد الملك لأمويته أن قتل ـ فيما

---

(١٠) المقّرى : المصدر نفسه ، جـ١ ، ص ٣٢٩ .

(١١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ . بولاق جـ٦ ، ص ٤ .

(١٢) أى أقرب الفروع إلى الأصل .

يروى ـ ولده الذى تقاعس عن التصدى لهذه الفتنة (١٣).

أضحى عبد الرحمن الداخل بعد سنة ١٤٠ فى وضع عجيب خرج به عن مفهوم الخلافة الإسلامية الواحدة ، وكان قمينًا به مصير كمصير سميه عبد الرحمن بن حبيب الفهرى بإفريقية (١٤).

أسفر ما أقدم عليه عبد الرحمن الداخل من قطع الخطبة للمنصور عن ثورة ، أو إذا شئنا غزوة قام بها العلاء بن مغيث الجُذامى (أو اليحصبى) وهو من أشراف باجة Béja خرج منها إلى إفريقية ، ثم عاد فى سنة ١٤٦ وقد سوّد ، وسجله المنصور على الأندلس والتقى بعبد الرحمن فى قرمونة Carmona وانتهى أمره إلى أن هزم وقتل ، وبعث برأسه ولواء المنصور فى سفط ، ووقع عليه بصر الخليفة العباسى وهو يحج بيت الله ، فارتاع وقال : عرضناه المسكين للقتل ... الحمد

---

(١٣) المقرى : المصدر نفسه جـ٣ ، ص ٥٩ تر ٤٠ .

(١٤) مغامر عربى انتهز فرصة اضطراب أحوال إفريقية فى أواخر عهد بنى أمية ، فاستقل بها فى سنة ١٢٧ ، واضطر مروان بن محمد إلى اقراره على ولايته ، فلما قامت دولة بنى العباس ، جددوا الاعتراف به ، ثم انقلب هو عليهم ، فلما قتله أخواه الياس وعبد الوارث أعادا الدعوة للمنصور العباسى ، ولم يلبث أن دبت حروب بين أبناء هذا البيت انتهت إلى زواله فى سنة ١٤٠ / ٧٥٧. راجع النويرى : المصدر نفسه ، جـ٤ ، ص ٦٤ ، ٧٢ ، ابن عذارى: المصدر نفسه ، جـ١ ، ص ٦٠ ـ ٧٠ .

لله الذى جعل بيننا وبين مثل هذا من عدونا بحراً [١٥] .

كان لنجاح عبد الرحمن فى قمع هذا التدخل العباسى أثره الواضح فى تكريس مبدأ الإمارة دون تفويض ، ونجاحًا له فى الوقت نفسه .

- 2 -

تمضى السنوات فيجبهنا هذا النص الهام [١٦] .

« وأشاع سنة ١٦٣ الرحيل إلى الشام لانتزاعها من بنى العباس، وكاتب جماعة من أهل بيته ومواليه وشيعته ، وعمل على أن يستخلف ابنه سليمان بالأندلس فى طائفة ، ويذهب بعامة من أطاعه ، ثم أعرض عن ذلك بسبب أمر الحسين الأنصارى[١٧] الذى انتزى عليه بَسَرَقُسْطَه Zaragoza فبطل ذلك العزم » .

يفهم من النص أن عبد الرحمن الداخل فكر فى بعث الخلافة

---

(١٥) ابن القوطية : المصدر نفسه ، ص ٥٤ ـ ٥٥ ، وانظر أيضًا : أخبار مجموعة ، ص ١٠١ ـ ١٠٣ ، ابن عذارى : المصدر نفسه ، جـ٣ ، ص٥١ ـ ٥٢.

(١٦) المقرى : المصدر نفسه ، م٣ ، ص ٥٤ .

(١٧) الحسين بن يحيى الأنصارى الخزرجى ، وقد شارك سليمان بن يقظان الأعرابى الكلبى فى المؤامرة على عبد الرحمن الداخل . انظر ابن الأثير : المصدر نفسه جـ٦ ، ص ٥ ، ٢٠ ، ٢٣ .

الأموية فى المشرق ، بل سعى إلى أن يخرج مشروعه هذا إلى حيز التنفيذ ، لولا اختلاف الأمر عليه فى الأندلس ، وإلا فماذا يعنى رحيله إلى الشام وانتزاعها ، وتكبده عناءً ومشقةً ، إذا كان لا يعنى ذلك .

تؤيدنا فى هذا الفهم رواية اثنين من المشارقة للخبر نفسه .

يقول ابن الأثير(١٨) : « وفيها (١٦٣) أظهر عبد الرحمن الأموى التجهز إلى الشام بزعمه لمحو الدولة العباسية ، وأخذ ثأره منهم ، فعصى عليه سليمان بن يقظان والحسين بن يحيى بن سعيد بن سعد بن عثمان الأنصارى بسرقسطة واشتد أمرهما ، فترك ما كان عزم عليه » .

يقول النويرى (ت٧٣٢هـ) (١٩) : « وفى سنة ثلاث وستين ومائة أظهر الأمير عبد الرحمن التجهز إلى الخروج لقصد الشام ، لطلب الثأر من بنى العباس ، فعصى عليه سليمان بن يقظان والحسين بن يحيى ابن سعد بن عبادة الأنصارى بسرقسطة ، واشتد أمرهما ، فرجع عن ذلك ، وترك ما كان أظهره منه » .

كان على عبد الرحمن أن يبقى على هذا الوضع العجيب . وهو

---

(١٨) المصدر نفسه جـ٦ ، ص ٢٢ .

(١٩) المصدر نفسه جـ٢٣ ، تحقيق أحمد كمال زكى . القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٠ . ص ٣٤٨ .

كونه أميراً مسلماً مستقلاً لا يعترف بالخلافة القائمة ، وفى الوقت نفسه لا يتسمى بها ، أو أن يسعى إلى إزالة الخلافة العباسية ذاتها .

يلوح لنا أن عبد الرحمن بعد أن نجح فى تحقيق الهدف الأول ، نهض من أجل تحقيق الهدف الآخر ، وكون النص مؤرخًا بسنة ١٦٣هـ أمر له دلالته ، ويرتبط بمجموعة من الأحداث الهامة ، وقعت حول هذا التاريخ قبيله وبعيده فى المشرق والمغرب معًا . ولنعرض لهذه الأحداث على نحو الاختصار ، ونحاول أن نربط بينها وبين هذا النص .

المجموعة الأولى من الأحداث تختص بثورة بعض المسلمين على عبد الرحمن الداخل ، واتصال واحد منهم على الأقل ـ وهو سليمان ابن يقظان الأعرابى الكلبى بشارلمان Charlemagne[٢٠] ملك الفرنجة ، واتصال واحد آخر منهم على الأقل أيضاً ـ وهو عبد الرحمن ابن حبيب السِقْلابى الفهرى [٢١] ـ بالمهدى خليفة بنى العباس .

---

(٢٠) أى شارل أو كارل الكبير Carolus Magnus ودعى فى المصادر العربية بقارلُه وحكم مملكة الفرنجة من سنة ٧٦٨ إلى سنة ٨١٤م ونادى به البابا امبراطوراً ليلة عيد الميلاد سنة ٨٠٠م .

(٢١) أو الصقلبى دعى بذلك لطوله وشقرته ، وهو غير سميه عبد الرحمن بن حبيب الفهرى صاحب إفريقية الذى اغتيل قبل سنوات .

تحدد الرواية الفرنجية لقاء سليمان فى ربيع سنة ٧٧٧م (= ١٦٠هـ) بمدينة پادربورن Paderborn من أعمال ولاية فستفاليا بألمانيا ، وعلى ذلك فقد عبر شارلمان بجيشه إلى إسبانيا فى العام التالى، وذلك فى حملته التى انتهت بمأساة رونسڤال Roncesvalles (بوابة الشزرى) وخلدتها أغنية رولان Chanson de Roland المشهورة(٢٢). أما سليمان وغيره من الثوار ، فقد تمادوا فى ثورتهم بعد ذلك سنوات .

فى الوقت نفسه كان هناك ثائر آخر هو عبد الرحمن بن حبيب الفهرى (أو السقلابى) الذى جدد فعل العلاء بن مغيث فعبر الأندلس إلى إفريقية ، ثم عاد بجيش من البربر ، فنزل ساحل تدمير Tudmir فى سنة ١٦٢ ودعا لبنى العباس ، وسار إليه عبد الرحمن الداخل وحرّق سفنه ، وتعقبه فى جبال بَلَنْسَية ، إلى أن اغتاله بعض أصحابه ، وبعثوا برأسه إلى الأمير فى آخر سنة ١٦٢ / ٧٧٨ (٢٣).

---

(٢٢) راجع تفصيل ذلك فى ديفز : شارلمان ، ترجمة السيد الباز العرينى . القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٠ . ص ١٠١ ـ ١٠٣ ، وأيضاً محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ، القاهرة ، الخانجى ١٩٦٩ . م١ ، ق ١ ، الفصل الرابع ١٦٨ ـ ١٩١ .

(٢٣) أخبار مجموعة ، ص ١١٠ ـ ١١١ ، ابن عذارى : المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص ٥٥ ـ ٥٦ ، ابن الأثير : المصدر نفسه جـ٦ ، ص ٢٠ .

أعقبت ثورة السقلابى ثورة أخرى قام بها الرُّماحس بن عبد العزيز الكنانى والى الجزيرة الخضراء Algeciras فثار فى سنة ١٦٣ ، وسار إليه عبد الرحمن وأجبره على أن يعبر إلى المشرق فى العام التالى ، ويفد على الخليفة العباسى ببغداد (٢٤) .

نتساءل .. هل يوجد خيط يربط بين ثوار يدعون للخليفة العباسى، وبين ثوار يدعون ملك الفرنجة ، والهدف فى النهاية واحد .

بعبارة أخرى ، هل يوجد اتفاق مشترك بين خليفة المسلمين وبين ملك الفرنجة ، شارك فيه هؤلاء الثوار .

المصلحة ترجح وجود هذا الاتفاق ، فمصلحة العباسيين والفرنجة واحدة ، ومصلحة الأمويين والبيزنطيين أيضًا واحدة . ولا يخفى ما كان يجرى من صوائف ، وجهها المنصور ومن تلاه من عقبه إلى

(٢٤) أخبار مجموعة ، ص ١١٢ ، ابن حزم : جمهرة أنساب العرب . تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٧١ ، ص ١٨٩ ، ابن عذارى : المصدر نفسه جـ٢ ، ص ٥٦ والرُّماحس هذا شخصية غامضة متقلبة فى حاجة إلى تحقيق فقد كان واليًا لمروان بن محمد على فلسطين وأعانه فى قمع الثورات بها ، وعندما هرب مروان هذا إلى مصر بعد هزيمة الزاب صحبه إليها . الطبرى : تاريخ الرسل والملوك . القاهرة ، دار المعارف ١٩٧٩ . جـ٧، ص ٣١٤ ، ٤٣٨ . على أنه ما لبث أن خالف على مروان بمصر وأيده فى خلافه بعض الأموية إلى جانب القيسية ، وعندما لحقت به الهزيمة فارق البلاد . الكندى : كتاب الولاة والقضاة ، تحقيق رفن كَست ، بيروت ١٩٠٨ ، ص ٩٤ .

البيزنطيين، ولا يخفى أيضًا النزاع الذى كان ناشبًا بين الفرنجة وبين البيزنطيين ، هذا النزاع الذى اتخذت فيه البابوية جانب الفرنجة ، وانتهى بتتويج شارلمان امبراطوراً فى سنة ٨٠٠م .

ليس لدينا فى مصادرنا العربية ما يؤكد هذا الاتفاق ، والمصادر الفرنجية وحدها ، تشير إلى سفارات متبادلة بين آخن Aachen [٢٥] وبين بغداد ، وتشير أيضاً إلى هدايا متبادلة ثم وضع بيت المقدس تحت حماية ملك الفرنجة [٢٦].

صمت الرواية العربية تمامًا ، ووقوف الرواية الفرنجية عند حد يجعلنا نشك فى وجود اتفاق ، لكننا فى الوقت نفسه لا ننفيه .

مهما يكن من أمر ، فواضح أن العلاقة وثيقة بين ثورتى السقلابى والكنانى وبين خليفة بغداد ، والثورتان معا تقعان فى رحم الفترة التى اعتزم خلالها عبد الرحمن الداخل الرحيل إلى بلاد الشام .

نقف عند هذا الحد ، ونرتحل مسافةً طويلة إلى مصر .

---

(٢٥) أوإيكس لاشابل Aix La Chapelle و وهى عاصمة دولة الفرنجة .

(26) Einhard and Notker the stammerer : Two lives of Charlemagne . Trans by Lewis Thorpe. Penguin books, 1979 , pp. 70 , 145 - 149 .

- 3 -

يذكر الكِنْدى (ت ٣٥٠هـ) فى كتابه « الولاة والقضاة » إنه فى سنة ١٦٧ ، وإبان ولاية إبراهيم بن صالح العباسى لمصر ثار بها أمير أموى يدعى دِحْية بن مُصعب بن الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان ، ودامت ثورته سنتين .

ينتمى دحية إلى أسرة من بنى أمية اتخذت مصر وطنًا لها منذ نيف ومائة عام ، وجد أبيه عبد العزيز بن مروان ولى هذه البلاد صلاةً وخراجًا طيلة عهد أخيه عبد الملك ، وامتدت ولايته أيضًا إلى بلاد المغرب ، وأعانه ولده الأصبغ فى حكم مصر واستخلفه عليها حين خرج إلى الشام فى سنة ٧٥هـ ، وإذا كان الأصبغ قد مات قبيل موت أبيه فى سنة ٨٦هـ [٢٧] ، فإن أخاه زبان شارك فى الأحداث السياسية التى صاحبت الدولة الأموية فى عهدها الأخير ، وأعان بدوره مروان بن محمد فى قمع بعض الثورات التى نشبت ضده فى الصعيد [٢٨] .

أعقب قتل مروان فى بوصير فى سنة ٧٥٠/١٣٢ على يدى صالح بن على العباسى مقتل عديد من بنى أمية المصريين، معظمهم من أبناء عبد العزيز بن مروان وحفدته [٢٩] .

---

(٢٧) الكندى : المصدر نفسه ، ص ٤٦ ـ ٥٥ .

(٢٨) المصدر نفسه ، ٨٧ ـ ٩٦ .

(٢٩) المصدر نفسه ، ص ٩٧ ـ ١٠٠ .

أتيحت الفرصة للأمويين المصريين أن يعودوا إلى الساحة مع ثورة محمد النفس الزكية (٣٠) ـ الثائر الحسنى بالحجاز ـ الذى أرسل ولده عليًا إلى مصر فى سنة ١٤٤هـ ، فوافقه فى دعوته دحية بن مصعب هذا وعم له يدعى زيد بن الأصبغ بن عبد العزيز . وقد توانى والى مصر حُمَيْد بن قَحْطَبَة فى قمع الثورة ، مما أسفر عن عزله ، وولى مكانه يزيد بن حاتم المُهَلَّبى الذى نجح فيما لم ينجح فيه سلفه (٣١) .

فى سنة ١٦٧ / ٧٨٤ أعلن دحية بن مصعب أول ثورة أموية بمصر ، وآخرها فى الوقت نفسه ، وتراخى واليها إبراهيم بن صالح العباسى فى قمعها ، وملك دحية عامة بلاد الصعيد ، مما أسخط الخليفة المهدى على واليه فعزله فى ذى الحجة وولى موسى بن مُصْعَب الخَثْعَمى (٣٢) .

أعانت سياسة الوالى الجديد على تمادى دحية فى ثورته ، فقد تعسف هذا الوالى فى استخراج الأموال وسلك سبيل الرشوة فى

---

(٣٠) دعا إلى نفسه بالخلافة وأرسل المنصور إليه بعيسى بن موسى العباسى الذى تمكن من قتله . تفصيل ثورته فى الطبرى : المصدر نفسه جـ٧ ، ص ٥١٧ ـ ٦٤٩ .

(٣١) الكندى : المصدر نفسه ، ص ١١١ ـ ١١٥ .

(٣٢) المصدر نفسه ، ص ١٢٤ ، وانظر أيضًا : أبو المحاسن بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، القاهرة ، دار الكتب ١٩٣٠ . جـ٢ ، ص ٤٩ .

الأحكام ، فكرهه الجند ، وثار أهل الحوف عليه ، واتحد القيسية واليمانية ضده ، وانتهى أمره بأن قتل فى شوال سنة ١٦٨هـ ، ليلى مصر على نحو مؤقت صاحب الشرطة عَسامة بن عمرو المعافرى [٣٣] .

جرت عدة اشتباكات بين عسامة وبين دحية ، هدد خلالها هذا الأخير الفسطاط ، إلى أن قدم الفضل بن صالح العباسى فى جيش كبير ، واليًا على مصر من قبل الخليفة المهدى فى المحرم سنة ١٦٩ / ٧٨٥ [٣٤] .

كان دحية على وشك أن يدخل الفسطاط ، لأن الناس دعوه إليها ، فعقد الفضل لسفيان القائد على الجند ، فالتقى بفتح بن الصَّلْت الأزدى قائد دحية ببُوَيْط [٣٥] ، وتمكن من قتله ، وتقهقر الثوار إلى الواحات ، وولى أمر مطاردتهم عبد الله بن على .

كان أهل الواحات من المسالمة[٣٦] والبربر الذين يذهبون مذهب

---

(٣٣) الكندى : المصدر نفسه ، ص ١٢٥ ، ١٢٧ ، أبو المحاسن : المصدر نفسه جـ٢ ، ص ٥٤ .

(٣٤) الكندى : المصدر نفسه ، ص ١٢٨ ، ١٢٩ ، أبو المحاسن : المصدر نفسه جـ٢ ، ص ٥٧ .

(٣٥) بالضم ثم الفتح قرية بصعيد مصر قرب بوصير . ياقوت : معجم البلدان ، القاهرة الخانجى ١٩٠٦ . جـ٢ ، ص ٣١١ .

(٣٦) أى من حديثى العهد بالإسلام .

الخوارج فأعانوا دحية فى ثورته ، وأوقعوا الهزيمة بعبد الله بن على ، لكنهم لم يلبثوا أن انفصلوا عن صاحبهم لإيثاره العرب عليهم ، وقالوا له : هذا ظلم والإسلام واحد ، ولسنا نقاتل معك حتى نمتحنك بالبراءة من عثمان . فامتنع دحية وقال : « والله ما أرجو الجنة إلا بالرحم بينى وبين عثمان » . فانصرفوا عنه (٣٧).

عندما ترامت هذه الأخبار إلى عبد الله بن على عاد إلى قتال دحية ، حتى هزمه وأسره وقدم به إلى الفسطاط ، فضرب الفضل عنقه، وصلبت جثته ، وبعث برأسه إلى الخليفة الهادى (٣٨).

- 4 -

السؤال الآن .. هل يوجد رابط بين ثورة دحية وبين عبد الرحمن الداخل ؟

نقلب فى مصادرنا ، فلا نجد فيها ـ مشرقيةً وأندلسيةً ـ خبراً عن أن دحية كان يدعو لعبد الرحمن الداخل ، بل إن مصدراً مصرياً مثل الكندى ، يقرر صراحةً أن دحية كان يدعو لنفسه .

على أننا لا نستبعد وجود صلة بين دحية وبين قريبه الأندلسى ، لأن ثورته نشبت فى عام ١٦٧هـ وقبيل ذلك بسنوات قليلة تعرضت

---

(٣٧) الكندى : المصدر نفسه ، ص ١٣٠ .

(٣٨) المصدر نفسه ، ص ١٣٠ ، أبو المحاسن : المصدر نفسه جـ٢ ، ص٦٠ .

الأندلس لتدخلات عباسية وفرنجية ، نجح الداخل فى صدها جميعًا . ويرجح أن ثورة دحية رد فعل على نحو أو آخر لهذه التدخلات ونتيجة لها ، وربما كان يدعو لعبد الرحمن الداخل ، وأخطأ الكندى فنسب هذه الدعوة إلى دحية نفسه ، أو إنه دعا إلى نفسه عندما شاهد الأمير الأندلسى يعدل عن مشروعه فى غزو الشام .

وسواء كان دحية يدعو لنفسه ، أو كان يدعو لعبد الرحمن الداخل ، فإن هذه الدعوة ترجح أن هذا الأخير راودته فى فترة متأخرة من حكمه فكرة أن يبعث خلافة أجداده فى المشرق ، وشرع فى تحقيقها بالفعل .

يؤيد ذلك أيضًا ما ذكره الطبرى[٣٩] من أن الداخل أرسل إلى المهدى كتابًا عدد فيه مثالب بنى العباس ، فرد عليه المهدى بكتاب عدد فيه مثالب بنى أمية . فلم يكن الداخل ليرسل بكتاب مثل ذلك ، إلا إذا كان الصراع بين العباسيين وبين الأمويين قد استحر لدرجة ، تشابه ما جرى من صراع بين الفاطميين وبين الأمويين بعد ذلك بفترة طويلة[٤٠] .

---

(٣٩) المصدر نفسه جـ٨ ، ص ١٧٢ ـ ١٧٣ .

(٤٠) أرسل العزيز بالله الفاطمى إلى الحكم المستنصر الأموى كتابًا يشتمه فيه ويسبه ، فكتب إليه الحكم « أما بعد فإنك عرفتنا فهجوتنا ، ولو عرفناك لأجبناك والسلام » النويرى : المصدر نفسه . جـ٢٣ ، ص ٤٠٢ .

- 5 -

نخرج فى النهاية إلى فرض ، هو إن عبد الرحمن الداخل بعد أن استولى على أزمة الأمور فى الأندلس ، صار يحكم دون مسوغ شرعى، فلم يصدر تقليد له من خليفة المسلمين وحاول من جانبه أن يجرى توفيقاً بين واقع الحال وبين واقع الشرع ، فدعا للخليفة المعاصر له أولاً وهو أبو جعفر المنصور ، لكنه عدل عن دعوته تلك حوالى سنة ١٤٠هـ ، مما أسفر عن ثورة قام بها أحد عملاء العباسيين بالأندلس وهو العلاء بن مغيث فى سنة ١٤٦هـ .

انتهت ثورة العلاء إلى الفشل ، فانصرف العباسيون إلى وجهة أخرى ، وهى أن يتحدوا مع الفرنجة ، ومع بعض الثوار الأندلسيين ، مما أسفر عن قلاقل عمت الأندلس جميعها فى وقت واحد ، خلال الفترة من ١٦٠ إلى ١٦٤هـ ، عبر خلالها شارلمان إلى إسبانيا .

وكان رد عبد الرحمن على هذه المؤامرة أن فكر فى العبور إلى الشام فى سنة ١٦٣هـ وبعث الخلافة الأموية فى المشرق . وعندما عدل عن ذلك لظروف خاصة به ، أو عز إلى بعض أقربائه الأمويين بمصر أن يثور بها ، فدعا هذا الأموى لنفسه أو دعا للداخل وكادت ثورته أن تنجح ، وكان قميناً بها فى حال نجاحها ، عود للخلافة الأموية وبعث لها قبل مائة وخمسين عاماً من تسمى الناصر بها ، وما ندعيه هنا لا يعدو كونه فرضاً يحتاج إلى قرائن أخرى لإثباته .

الفصل الرابع

محمد عبد الله عنان .. والجنة الغاربة

فى سنة ١٩٤٢ كانت زفرات الملك الصغير[١] علامةً فارقةً على خريطة الأندلس ، وفى سنة ١٨٩٦ كان ميلاد محمد عبد الله عنان علامةً فارقةً أخرى على هذه الخريطة .

حول هذا التاريخ ـ قبيله وبعيده ـ خرج إلى الدنيا جيل عظيم من المصريين ، هم من ندعوهم بجيل الرواد ، وكان عنان أحدهم .

- 1 -

ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن عرفة العنانى المعروف بمحمد عبد الله بقرية بِشْلا من أعمال ميت غَمْر بمديرية الدقهلية فى السابع من يوليو من عام ١٨٩٦ .

(*) نشرت هذه الدراسة التأبينية فى المجلة التاريخية المصرية ، المجلد ٣٤ لسنة ١٩٨٧ .

(١) أبو عبد الله محمد (الحادى عشر) ١٤٨٢/٨٨٧ ـ ١٤٩٢/٨٩٧ آخر ملوك غرناطة ويدعوه الإسبان بـ Boabdil وبالملك الصغير El Rey Chico وورد فى المصادر القشتالية المعاصرة أنه عند رحيله مفارقاً غرناطة بعد تسليمها توقف عند ربوة تطل على المدينة وأجهش بالبكاء وقد أطلق الإسبان على هذه الربوة El Último Suspiro del Moro أى « زفرة المسلم الأخيرة » .

حصل على البكالوريا من المدرسة الخديوية بالقاهرة فى عام ١٩١٤ ، كما حصل على الإجازة من مدرسة الحقوق السلطانية فى عام ١٩١٨ .

عمل محاميًا وعمل أيضًا بالصحافة والصحافة الأدبية إلى أن التحق بالوظيفة الحكومية فى عام ١٩٣٥ ، وظل بها إلى أن أحيل إلى المعاش فى عام ١٩٥٥ .

تزوج فى عام ١٩٣٠ آنسةً نمساويةً فاضلة تدعى يوهانا ، أسلمت بعد سبع سنوات وصار اسمها هناء ، وكانت هذه السيدة خير عون لزوجها فى رحلة حياته (٢) .

نشر الأستاذ عنان نحو ثلاثين كتاباً فى مجالات مختلفة ، أخصها التاريخ ، وتاريخ الأندلس ، وترجم له كتابان إلى اللغة الإنجليزية فى بلاد الهند (٣) ، كما حاضر فى بعض المراكز العلمية بالخارج ، مثل مدرسة الدراسات الشرقية بلندن .

---

(٢) معلوماتنا عن حياة الأستاذ عنان الخاصة مستقاة من حديث لنا مع السيدة الفاضلة حرمه .

(٣) مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام

Decisive moments in the history of Islam, Lahore , 1941 .

وترجم أيضاً إلى الأوردية .

ابن خلدون ؛ حياته وتراثه الفكرى

Ibn Khaldun . his life and works, Lahore .

حصل الأستاذ عنان على جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الإجتماعية فى عام ١٩٧٧ ، وحصل على وسام الجمهورية من الطبقة الأولى فى عام ١٩٧٨ ، ووسام الكفاءة الفكرية من الملك الحسن فى عام ١٩٨١ ، واختير عضواً بمجمع اللغة العربية ونادى القلم الدولى .

توفاه الله فى العشرين من يناير ١٩٨٦ .

حياته فى ظاهرها منبسطة لا توجد بها نتوءات إلا فى أوائلها ، ففى سنة ١٩٢١ كان أحد أربعة ، هم مؤسسو الحزب الإشتراكى المصرى . سلامة موسى ، محمود حسنى العرابى ، على العنانى ، محمد عبد الله عنان .

عندما اختلف أمر هذا الحزب باختلاف زعمائه حول الموقف من الدولية الثالثة ، وما أعقب ذلك من ضربات وجهت إليه من قبل الحكومة الوطنية الأولى ، ترك عنان الحزب الإشتراكى[٤]، ولم يلتحق بأىّ من الأحزاب المصرية الناشئة ، وإن كان يميل أحياناً إلى حزب الأحرار الدستوريين ، خصوصًا وقد جمعته صداقة بالدكتور محمد

(٤) راجع ما كتبه اليساريون بهذا الشأن ، خصوصاً رفعت السعيد : تاريخ الحركة الاشتراكية فى مصر ١٩٠٠ ـ ١٩٢٥ . ط٥ ، القاهرة ، دار الثقافة الجديدة ١٩٨٠ ، ص ١٢٣ ـ ١٢٥ ، ٢١١ ـ ٢٩٦ .

حسين هيكل (ت١٩٥٦) الذى قدم لبعض كتبه[٥] فداوم على الكتابة فى السياسة والسياسة الأسبوعية، واشترك مع هيكل والمازنى[٦] (ت١٩٤٩) فى نشر كتاب[٧] يهاجم صدقى باشا وحكومته فى عام ١٩٣١ .

إنصرف عنان انصرافاً تاماً عن السياسة ، عقب التحاقه بالوظيفة فى عام ١٩٣٥ ، وفى العام التالى عقدت معاهدة تلتها حرب كبرى ، أسفرت عن هدوء نسبى فى الساحة الوطنية .

- 2 -

يمثل الأستاذ عنان جيله على نحو دقيق ، فقد كان موسوعياً ، له دراسات ثرة فى التاريخ والأدب والسياسة والإجتماع ، كما اكتملت لديه أدواته ، فكان يجيد الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية ، وكان على دراية باللاتينية ، وأخرج أحد كتبه وهو مأساة ما يرلنج بالعربية[٨] والإنجليزية [٩].

---

(٥) مثل ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى ط١ ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٠ .

(٦) إبراهيم عبد القادر المازنى كاتب وشاعر مصرى معروف ١٨٩٠ ـ ١٩٤٩ .

(٧) السياسة المصرية والإنقلاب الدستورى .

(٨) دار المعارف ١٩٤٨ .

(9) The Trajedy of Meyerling 1945 .

شارك عنان هذا الجيل فى خصيصة أخرى هامة ؛ هى إنه لعب دوراً تنويرياً ، فهو رائد من رواد الفكر الاشتراكى فى مصر ، ولم يقصر همه على الترويج للمدرسة الفابية ، مثلما فعل سلامة موسى (ت١٩٥٨) ، إنما عرّف بمختلف المدارس الإشتراكية ، حتى بعد أن فارق الحزب الإشتراكى ، وله أكثر من كتاب فى هذا المجال [١٠] .

على أن عناناً كان يفترق عن أبناء جيله ، أو كثرة أبناء جيله بنزوعه إلى الرحلة ، ومفتاح شخصيته ـ إذا نحن استعرنا تعبير العقاد (ت١٩٦٤) ـ هو إنه رحالة ، وقد داوم الرحلة ، حتى أعوام قليلة من نهاية رحلته الكبرى ـ رحلة حياته ـ وسفراته يصعب علينا إحصاؤها ، وليست الأندلس سوى جزيرة ، كان هو أول الواصلين إليها .

ومزية الرحالة عن غيره من المسافرين ، أنه يلاحظ ما لا يلاحظه هؤلاء ، وتستوقفه أشياء لا تستوقفهم ، وتستبد به رغبة حميمة نحو اقتحام المجهول ، وتقصيه إلى أبعد أطرافه . وقد يكون هذا المجهول مخطوطةً عربية أو غير عربية فى خزانة كتب بعيدة عن متناول الناس ، أو واقعةَ تاريخيةً يلفها سياج سميك من الغموض ، أو مذهباً اجتماعياً جديداً لم يكن ليحفل به أحد [١١] ، أو جزيرةً نائيةً فى بحر الظلمات ،

---

(١٠) من أهمها المذاهب الإجتماعية الحديثة ؛ ط٥ ، القاهرة ، دار الشروق ١٩٧٣ .

(١١) ترجم الأستاذ عنان أطروحة طه حسين لدرجة الدكتوراه باسم « فلسفة ابن خلدون الإجتماعية ؛ تحليل ونقد » ونشرها فى عام ١٩٢٥ .

معلومات الناس عنها سيما فى شرقنا العربى لا تزيد عن حفنة من أشعار ، وحفنة أخرى من أشجان ، من حيث كونها جنةً غاربة .

وضح هذا النزوع فى كتابات عنان الأولى .

يقول فى مقدمة كتابه تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة(١٢) .

« ولم أقصد بكتابة هذه الفصول أن أثير طُلعة القارئ بما تضمنت من حقائق وبيانات مدهشة ، ولكنى أردت ـ كما أردت بإخراج كتابى قضايا التاريخ الكبرى ـ أن أقدم إلى الآداب العربية صنفاً محدثاً من المباحث التاريخية ، يقف منه شبابنا المفكر على ناحية من نواحى التاريخ الاجتماعى والتفكير البشرى ، لم يعن به حتى اليوم أحد من كتاب العربية » .

تتعدد موضوعات الكتاب من شيعة إسماعيلية ودروز وفرسان المعبد والألبيين والماسونية إلى العدمية والفوضوية والماركسية .

على أن هذه الرغبة فى اقتحام المجهول ، كان يرافقها فى الوقت نفسه ثقافة قانونية ، بل وممارسة فى مجال القانون امتدت إلى عام ١٩٣٥ ، يسرت لمؤرخنا خصيصةً أخرى هامة ، وهى التحقيق وتقصى الأدلة والمقارنة ، قبل أن يصدر حكمًا ما ، وهى صفة لازمة لرجل القانون ، مثلما هى لازمة للمؤرخ .

---

(١٢) القاهرة ، دار الهلال ١٩٢٦ ، ص ٥ .

عندما نراجع كتبه ، نجد بعضها تجمع بين كونها تحليلاً لقضايا هامة ، وبين كونها تحليلاً لأحداث هامة ، مثل كتابه « ديوان التحقيق » وكتابه « تاريخ المؤامرات السياسية » .

والكتاب الأخير عرض شائق لبعض هذه المؤامرات ، يناقشها المؤلف في جوانبها التاريخية والقانونية ، ويخرج بأن المؤامرة ظاهرة تنمو طردياً مع تقييد الحريات .

- 3 -

نشر الأستاذ عنان عدةً من الكتب ، كان يضع خلالها قدمًا فى الأدب وقدمًا أخرى فى التاريخ ، شأنه فى هذا شأن الأستاذ على أدهم[١٣] (ت١٩٨١) فى صوره التاريخية والأستاذ حسين مؤنس فى كتبه وكتابه .

وفى عام ١٩٤٤ أصدر الأستاذ عنان « المآسى والصور الغوامض » وهو مجموعة من الصور التاريخية الشائقة ، تحرى المؤلف معها أن تكون الشخصيات جميعها حقيقيةً والأحداث موثقةً ، رغمًا عما نصادفه فيها من غرابة لا تتوافر إلا فى الفن القصصى ، وأسلوب المؤلف هنا دفاق

---

(١٣) كاتب ومؤرخ مصرى معروف ، ١٨٩٧ ـ ١٩٨١ .

جميل . ومن ألطف ما فى الكتاب عرضه لحياة لوكريسيا بورجيا[١٤]، فبدت لنا هذه الحسناء مختلفةً عما نعرفه عنها ، وعرضه لحياة القيصرة اليزابث هابسبورج[١٥] وهو نواة رائعته « مأساة مايرلنج » .

والمأساة تحكى قصة حب انتهت بموت الأمير رودلف ولى عهد أبيه القيصر فرانس يوزيف ١٨٤٨ ـ ١٩١٦ ومارى ڤتشيرا Vetsera والقصة موثقة بمراجع عديدة ، وقد سافر المؤلف إلى موقع الأحداث مرتين وزار قبر الأمير ، كما زار قبر حبيبته .

فى أسلوب شاعرى جميل يقول المؤلف [١٦] .

« ولقد جبنا هذه الأرجاء غير مرة أيام الخريف المشرقة ونعمنا باستجلاء هذه الطبيعة الساحرة ، وزرنا قصر مايرلنج ، أو بعبارة أخرى البناء الذى أقيم فوق موقع قصر الصيد القديم ، فى منحدر نضر من الوادى ، يخفيه عن الأنظار البعيدة ، ووقفنا خاشعين أمام الكنيسة التى أقيمت فوق المكان ، الذى وقعت فيه المأساة ، واستعرضنا مع الراهبة التى جاءت لاستقبالنا تلك الذكريات المؤثرة التى ما زالت تغمر هاته الأنحاء » .

---

(١٤) ص ٩ ـ ٤١ .

(١٥) ص ٢٠٧ ـ ٢١٧ .

(١٦) مأساة مايرلنج : ص ٦٤ .

إلى جانب هذه الصور التاريخية ، فإن لمؤرخنا مجموعةً من التراجم ، ضمنها بعض كتبه ، مثل « تراجم إسلامية شرقية وأندلسية » ، أو اختص الترجمة الواحدة بمؤلف مستقل مثل « ابن خلدون » و « ابن الخطيب » و « الحاكم بأمر الله » .

ويلاحظ على عنان فى تراجمه أنه كان يهتم بشخصيات غامضة أو مختلف فى أمرها ، أو ليست لدينا معرفة واسعة عنها ، مثل الحسن الوزان وهوليو الإفريقى Leo Africanus (١٧) وهارون الرشيد(١٨) الذى يعرض عنه صورةً صحيحةً بعيدةً عن الصورة المعروفة عند العامة ، وست الملك(١٩) التى ينصفها ويبين أثرها فى حفظ البيت الذى تنتمى إليه ، وهو يقارن بين سيرة بهاء الدين قراقوش(٢٠) فى التاريخ وبين سيرته فى القصص الشعبى ويوضح لماذا تباينت السيرتان ، وهو فى هذا الإبان يستريب فى نسبة كتاب الفاشوش إلى ابن مماتى .

ومن تراجمه الممتعة ترجمته للسان الدين بن الخطيب (ت٧٧٦/١٣٧٤) ولا نعلم أحداً سبقه إلى الكتابة عن هذا العلامة ، وهو يتعرض لحياته وتراثه الفكرى ككاتب وشاعر ومؤرخ وجغرافى ،

---

(١٧) ص ٣٥٤ ـ ٣٧٢ .

(١٨) ص ١٠ ـ ٣٠ .

(١٩) ٣١ ـ ٣٧ .

(٢٠) ٨٠ ـ ٨٤ .

ويأتى بجمل من تراجمه ورسائله وقصائده ، بل يثبت مخطوطات قصيرةً لم يسبق نشرها .

ورغماً عن حب عنان لابن الخطيب واعجابه به ، لدرجة أن جعله رصيفًا لابن خلدون (ت٨٠٨ / ١٤٠٦) بل يبزه أحياناً [٢١] ، فإنه فى تحليله لشخصيته ـ وهو تحليل متزن ـ يوضح بعض صفاته ومنها الملق ونكران الصنيعة وشغفه بجمع المال وغروره ونزوعه إلى الاستبداد والحقد ، لكنه يقرر إنه مات مظلوماً ، فقد نسب إليه خصومه المنافسون له تجديفاً فى حق الله تعالى وفى حق نبيه الكريم [٢٢] .

يستطرد المؤرخ فيتحدث عن مصرع ابن زمرك (ت٧٩٧/١٣٩٥) تلميذ ابن الخطيب وربيبه وخصيمه الذى صار أكبر الساعين فى نكبته ، كما يشير إلى إعادة الاعتبار إلى ابن الخطيب فى وطنه غرناطة Granada بعد خمسين عاماً لمصرعه [٢٣] .

- 4 -

هذا وقد اختص المؤرخ مصر بعدة من كتبه .

فى كتابه عن « الحاكم بأمر الله » (٣٨٦ / ٩٩٦ ـ ٤١١ / ١٠٢١) يحاول أن يستجلى الغموض الذى أحاط بشخصه . ويذهب

---

(٢١) لسان الدين بن الخطيب ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٢٠٣ .

(٢٢) المرجع نفسه ، ص ١٦٩ ـ ١٧٣ .

(٢٣) المرجع نفسه ، ص ١٧٦ ـ ١٧٨ .

إلى أنه كان يتتبع الدعوة إلى تأليهه بعين الرضا [٢٤] ، وإن كان يرى في تصرفاته التي قد تبدو شاذةً إيجابيات ، تهدف إلى تحقيق غايات لا ريب في حكمتها وسموها [٢٥] .

وفي كتابه عن « الخطط المصرية » ، يتتبع هذه الخطط وأصحابها منذ ابن عبد الحكم (ت ٢٥٧ / ٨٧١) حتى علي مبارك (ت ١٣١١ / ١٨٩٣) إلى جانب بحوث في تاريخ مصر حتى نهاية العصر العثماني ، يتصل معظمها بجوانب غامضة أو خلافية . ويتضح من الكتاب اعتزازه بهذا التاريخ ، ويأسف لأن بعض مصادره ما يزال مخطوطًا ، وهو يعد الخطط ابتكارًا مصريًا خالصًا ، ويعد ابن عبد الحكم منشئها الأول [٢٦] .

وفي كتابه عن المؤرخين المصريين ، يتناول ستة عشر مؤرخًا ، ابتداءً بعبد الرحمن بن عبد الحكم وانتهاءً بعبد الرحمن الجبرتي (١٢٤٠/١٨٢٥) ، وقد اهتم بتراث هؤلاء المؤرخين ومنهجهم في البحث أكثر من اهتمامه بحياتهم نفسها .

ومن أطرف ما في الكتاب مقارنته بين منهج السخاوي (ت٩٠٢/١٤٩٦) في تحليله لشخصياته وتصويره البارع لها ونقده

---

(٢٤) ط ٣ ، القاهرة ، الخانجي ١٩٨٣ ، ص ٢٠٥ وما بعدها ، ص ٣٠٤ .

(٢٥) المرجع نفسه ، ص ١٧٣ .

(٢٦) ط٢ ، القاهرة ، الخانجي ١٩٦٩ ، ص ٣ ـ ٥ .

اللاذع وزهوه، بالناقد الفرنسى والمؤرخ سانت بيف Sainte Beuve (ت ١٨٦٩) [٢٧].

- 5 -

إذا انتقلنا إلى منهج عنان التاريخى ، نلاحظ عليه حيدته وموضوعيته التى تعود إلى فترة باكرة ، ففى عرضه لفكر الشيعة الإسماعيلية ، يراجع المصادر السنية الخصيمة بقدر من التحفظ[٢٨] ورغمًا عن اختلافه مع الماركسيين ، فإنه يشيد بالثورة الإشتراكية فى روسيا ، وما حققته من إنجازات ، وسط ظروف طبيعية قاسية وحملات معادية ضدها وحصار [٢٩]. وهو فى عرضه لقضية دريفوس Dreyfus ينوه بما حاق بهذا الضابط اليهودى من عنت ، ويسهب فى ذكر تفاصيل القضية [٣٠]، التى استثمرت فيما بعد لصالح الحركة الصهيونية .

أما ديوان التحقيق ، وما أسفر عنه من ظلم فادح للمسلمين والمسلمين المتنصرين ، فإنه لا يصدر حكمه على هذا الديوان بداءةً ، إنما يترك الوثائق والوثائق النصرانية وحدها تتكلم . يقول [٣١]: « ولما

(٢٧) ط ١ ، القاهرة ، الخانجى ١٩٦٩ ، ص ١٣٧ ، ١٣٨ .

(٢٨) تاريخ الجمعيات السرية . ص ٥٦ ، حاشية ١ .

(٢٩) المرجع نفسه . ص ٢٠٩ .

(٣٠) ديوان التحقيق . ص ٥٠٤ ـ ٥٣٧ .

(٣١) المرجع نفسه . ص . م .

كانت الرواية المجردة لهذه المأساة تثير من تلقاء نفسها كثيراً من الأسى والشجن ، ففي وسع القارئ أن يقدر أثناء تلاوتها ، ما آنست في كتابتها من بواعث الانفعال والتأثير ، غير أني اجتنبت التعليق ما استطعت ، وتركت القول لمؤرخي الغرب أنفسهم ، معتقداً أن الوثائق تغني عن كل تعليق » .

المؤرخ إلى جانب ذلك يعني بمصادر بحثه ، ويتعقبها في مظانها ، ولا يدخر وسعًا في اقتنائها . وجملة ما كتبه عن المؤرخ المصرى محمد بن أبي السرور البكرى[٣٢] (ت ١٠٩٠ / ١٦٥٠) هو من خلال كتبه ، التي ما تزال مخطوطةً ، وهو أول من أفاد من السفر الخامس لمقتبس ابن حيان (ت ٤٦٩ / ١٠٧٦) فور العثور عليه بالخزانة الملكية في الرباط [٣٣]. ومن أجل دراسة مفردات تراث ابن الخطيب ، قام برحلة خاصة إلى إسبانيا وانجلترا والمغرب والجزائر ، كان من آثارها أن عثر في مكتبة الجزائر الوطنية ، على مقامة وحيدة له ، لم تكن معروفةً من قبل[٣٤] وعثر في مكتبة رواق المغاربة بالأزهر على

---

(٣٢) راجع في هذا الشأن الفصل الخاص بهذا المؤرخ في « مؤرخو مصر الإسلامية » .

(٣٣) تراجم إسلامية شرقية وأندلسية ط٢ . القاهرة ، الخانجي ١٩٧٠ ، ص٢٧٨ .

(٣٤) لسان الدين بن الخطيب . ص ٥ .

أوراق متناثرة من مخطوط الإحاطة ، وعلى هوامشها تأشيرات للمقرى (ت ١٠٤١ / ١٦٣١) صاحب « النفح » [٣٥] .

على أن عنانًا فى كتبه التاريخية البحتة ـ ومنها موسوعتنا الأندلسية ـ لم يعن على نحو واضح بالتحليل الاجتماعى فى دراسة التاريخ ، وقد يكون ذلك غريباً على مؤرخنا ، لأنه كان على دراية بهذا المنهج ، بحكم ممارسته للعمل السياسى فى باكر شبابه ، وليس لدينا غير تفسير وحيد ، هو إن هذا المنهج حديث ، ولم يتنبه إليه مؤرخونا ، إلا منذ أربعين سنة ، ثم إن أدواته لم تستكمل بعد ، خصوصًا فيما يختص بتاريخنا الوسيط ، ولم تتضح معالمه ، وإن حاول البعض أن يتعسف مع النصوص ، ليجعلها تنسجم مع أفكاره المسبقة .

ولعنان فكرة هامة ، أدار حولها كتابه « مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام » ، وتتضح فى موسوعته الأندلسية ، وهى فكرة الصراع بين الشرق والغرب ، أو بين الإسلام والنصرانية ، وهو يعتقد أن هذه الفكرة ويدعوها بالصليبية ، ظلت حيةً عبر العصور ، بما فيها عصرنا الحديث، وهى تشتد وتضطرم كلما بدت فورة اسلامية جديدة [٣٦] .

ونسافر مع المؤرخ إلى الأندلس .

---

(٣٥) تراجم إسلامية . ص ٣٧٧ .

(٣٦) مواقف حاسمة ط٤ . القاهرة ، الخانجى ١٩٦٢ ، ص ٣ ـ ٦ .

- 6 -

نبه من جيل عنان إثنان من الفضلاء اقتحما بالأندلس أسوار الجامعة ، هما الأستاذ أحمد ضيف (ت ١٩٤٥) والأستاذ عبد الحميد العبادى (ت ١٩٥٦) إختص أولهما بالأدب ، واختص الآخر بالتاريخ . ومع ما كان للفاضل الآخر من أياد ، حدثنا عنها بعض معاصريه ، فقد برز كمحاضر ، إلا أن كتابه المجمل [٣٧] ، وصل إلينا سماعًا عنه ، وبه هنات ليس هنا مجالها ، وربما كان العبادى الكبير يدخر جهده لإعداد عباديين آخرين [٣٨] كان لهما اسهامهما الواضح بالثغر الإسكندرى ، واختص أحدهما الأندلس باهتمامه .

على أن الريادة للأندلس داخل الجامعة تخطو خطوات أوسع مع أستاذين جليلين ، أحدهما وإن كان مقلاً مجيداً فى انتاجه ـ وهو الأستاذ عبد العزيز الأهوانى (ت١٩٨٠) ـ فإن له تلامذةً على اتساع العالم العربى ومريدين ، والآخر وإن كان مكثراً مجيداً فى إنتاجه ـ وهو الأستاذ حسين مؤنس ـ فلا له تلامذة ولا مريدون .

أين مكان الأستاذ عنان من الريادة للأندلس .

---

(٣٧) ط١ . القاهرة ، مكتبة النهضة امصرية ١٩٥٨ .

(٣٨) الأستاذ مصطفى عبد الحميد العبادى أستاذ التاريخ اليونانى ـ الرومانى بجامعة الاسكندرية والأستاذ أحمد مختار العبادى أستاذ التاريخ الإسلامى ـ الأندلسى على نحو خاص ـ بجامعة الاسكندرية .

إن مكان الأستاذ عنان فى تاريخ الأندلس ، هو مكان عبد الرحمن الرافعى (ت١٩٦٦) فى تاريخ مصر الحديث [٣٩].

فى سنة ١٩٢٤ أصدر محمد عبد الله عنان كتابًا بعنوان « تاريخ العرب فى إسبانيا أو تاريخ الأندلس » [٤٠]، على أنه يتضح من المقدمة أن تأليفه يعود إلى خمس سنوات سابقة ، عقيب دراسته القانونية ، وهو ما يتضح من المقدمة .

يقول [٤١] : ووافق استعدادى لتنظيمها وإعدادها للنشر أيامًا تكونت فيها وحدة مصر الوطنية ، وجاشت بالقلوب آمال كبيرة » .

والكتاب يتناول تاريخ العرب فى إسبانيا حتى نهاية دولة بنى حمود الأدارسة فى منتصف القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى، وفى الصفحات الأخيرة منه يأتى بطرف من النظم السياسية والإدارية

---

(٣٩) راجع مقالنا : عبد الرحمن الرافعى مؤرخ الحركة القومية . مجلة الفكر المعاصر ، عدد ٢٣ يناير ١٩٦٧ .

(٤٠) القاهرة ، مطبعة السعادة ١٩٢٤ .

(٤١) يشير ضمناً إلى الثورة المصرية ١٩١٩ .

وقد سبق هذا الكتاب كتاب آخر ترجمه عنان عن الإنجليزية وأصدره وهو بعد طالب بمدرسة الحقوق بعنوان تاريخ أوربا الحديث . القاهرة ، مطبعة السعادة ١٩١٥ ، ووصف نفسه على الغلاف بأنه حقوقى وجعل إهداءه إلى الأمة المصرية .

(يدعوها الاجتماعية) والعلمية والثقافية ، وينتهى بخاتمة ، وقد حرص بين حين وآخر على أن يؤرخ للممالك النصرانية ، المعاصرة لمملكة الإسلام ، كما كان يوثق أخباره فى أحيان كثيرة ، ويقارن بين الروايات بعضها وبعض ، خاصةً الروايات النصرانية ، ويأتى بحواش شارحة لما يرد فى المتن .

تمضى سنوات يصدر المؤرخ خلالها مجموعةً من الكتب ، يعبق بعضها بريح الأندلس ، وترجم كتاب أشباخ J. Aschbach عن « تاريخ الأندلس فى عصر المرابطين والموحدين »(٤٢) ونشره فى عام ١٩٤٠ ، وأضاف إليه طائفةً من الهوامش والتحقيقات والشروح وفهرساً للأعلام .

على أنه ابتداءً من هذا العام تفرغ عنان على نحو أساسى لموسوعته العظيمة « دولة الإسلام فى الأندلس » التى بدأ فى اخراجها فى عام ١٩٤٢ ، وجاءت فى سبعة مجلدات تضم أربعة آلاف صفحة .

- 7 -

« دولة الإسلام فى الأندلس » هى موسوعة عنان وعمل حياته ، أرخ خلالها لفترة من تاريخ الإسلام تمتد نحو ألف عام ، منذ قبيل الفتح ، حتى الطرد النهائى للمسلمين فى مطالع القرن السابع عشر .

---

(42) Geschichte Spaniens zu Zeit der Herrschaft der Almoraviden und Almohaden . Frankfurt am Main 1833.

حدد عنان المنهج الذى اتبعه فى هذه الموسوعة بقوله :[٤٣]

« هذا وقد راعيت فى سائر فصول هذه القصة الأندلسية المشجية أن أسلك سبيل التوسط المعتدل بعيداً عن الإيجاز المخل ، بعيداً فى الوقت نفسه عن الأسباب والتفاصيل الكثيرة ، إلا ما دعت إليه المناسبات الهامة أو المواقع الحاسمة ، حريصًا خلال ذلك كله ، على أن أبرز الحوادث والشخصيات والصور فى إطارها النقدى ، الذى تدعمه الوثائق والنصوص والقرائن بعيداً كل البعد عن التأثر بالعاطفة أو الأهواء أو الإتجاهات القومية أو الدينية من أى نوع ، وإنى لأرجو أن أكون قد وفقت فى ذلك فى تأدية رسالة الحق والصدق والاعتدال فى كتابة هذه الصفحات المشرقة المؤسية معا من تاريخ الأمة الأندلسية » .

ولما كان المؤرخ يكتب عن فترة طويلة حافلة ومصطخبة ، فإنه كان يقسم كل عصر إلى عصور أصغر تبعًا لأصحاب السيطرة ، ويتناول الأحداث المتصلة بعصر الأمير أو الخليفة أو الملك ، وهى فى مجملها أحداث سياسية ، من ثورات فى الداخل وحروب فى الخارج . ثم يأتى بتحليل لشخصية هذا الأمير ، ويثنى بالحديث عن الجوانب غير السياسية ، مثل الإدارة والمال والنظام الحربى والحركة العمرانية من

---

(٤٣) ع١ ق١ ط٤ . القاهرة ، الخانجى ١٩٦٩ ، ص ١١ .

مساجد وقصور وغيرها ، وينتهى بالأحوال الاجتماعية والثقافية وجملة من نبه فى هذا الإبان ، ولا يهمل الحديث عن الممالك النصرانية فى شبه الجزيرة ، وصلات هذه الممالك بالأندلس .

على أن المؤرخ عدل فى هذه الخطة ، فيما يختص بعصر الطوائف، بسبب تعدد السيادات ، بتعدد الدول والدويلات وتداخل تواريخها ، بما يجعل عملية السرد مملةً ومتكررة ، وقد عالج المشكلة بأن مهد لظهور الطوائف ، ثم قسم دولها إلى مجموعات عربية وبربرية وصقلبية ، وكان يتتبع ممالكها مملكةً مملكةً منذ بدايتها حتى نهايتها على أيدى المرابطين ، ثم يتناول معركة الزلاّقة Sagrajas والفتح المرابطى ، ويتحدث عن الممالك النصرانية خلال القرن الحادى عشر ، وينتهى بخواص عصر الطوائف السياسية والاجتماعية والحضارية ويأتى بوثائق وملحقات .

أما كتابه « الآثار الأندلسية الباقية فى إسبانيا والبرتغال » فإلى جانب كونه كتاباً فى الآثار ، فمن الممكن أيضًا أن يدخل فى أدب الرحلات ، وأسلوب المؤلف الممتع يجعله أشبه بسياحة تاريخية ، تذكرنا بالأستاذ حسين فوزى فى سندبادياته ، ولا يصطدم القارئ معها بمصطلحات أثرية جامدة ، إنما هى تتسلل برفق إلى وجدانه .

والمؤلف لا يكتفى بالحديث عن الآثار الأندلسية ، أى الآثار التى تعود إلى فترة السيادة العربية ، إنما يتطرق أيضاً إلى الآثار المدجنية ، أى

الآثار التى أقامها المدجنون المسلمون للسادة الجدد ، فضلاً عن إشاراته الحديثة الهامة ، ويتتبع الآثار مدينةً مدينة ، ويأتى بطرف من تاريخها الإسلامى ، بل الرومانى والقوطى إن وجد ، وما ورد بشأن الأثر فى المصادر الأدبية النصرانية .

وجرى المؤرخ على أن يضم إلى موسوعته خرائط توضيحيةً بل رسومًا تخطيطيةً للمعارك الكبيرة ، مثل الزلاقة والأرك Alarcos والعقاب Las Navas de Tolosa ومصورات لبعض أبطال الموسوعة وآثارها ، وفى نهاية كل مجلد يأتى بكشافات للأعلام والجماعات والأماكن ، وفهارس للكتب والأشعار والرسائل ، إلى جانب وثائق هامة، بعضها ما يزال مخطوطاً .

- 8 -

وبطبيعة الحال فقد كان على المؤرخ أن يراجع مصادر تبدو أحياناً متباينة ، وقد عالج المشكلة بأنه كان يناقش الروايات المختلفة عن الحادثة الواحدة ، ويأخذ فى المتن بما يراه صحيحًا منها ، ولا يهمل ما يراه أقل وثاقةً ، فيورده بالمتن أو يضيفه إلى الحواشى ، أما الأخبار الغريبة التى يصعب تصديقها ، وإن كان فى غرابتها ما يؤيد الحادثة ، فإنه يجعلها فى الحواشى .

إذا شئنا التفصل نجد المؤرخ لا ينحاز إلى الرواية العربية ، من حيث إنها عربية ، وكثيراً ما ينتقدها بل ويرفضها ، حتى وإن كانت الرواية النصرانية تجاريها ، فرغمًا عن اتفاق الروايتين فى المبالغة من عدد القتلى النصارى فى معركة أقليش Uclés ٥٠١ / ١١٠٨ ، إلا إنه بعد مناقشة طويلة يصل إلى تقدير أقل [٤٤]، وهو ينفى لقاء مهدى الموحدين بالإمام الغزالى (ت ٥٠٥ / ١١١٢) هذا اللقاء الذى يستند إليه هؤلاء فى شرعية قيامهم على المرابطين ، ولا يأبه باتفاق المصادر المعاصرة وشبه المعاصرة على ذلك [٤٥] .

وكثيراً ما كان المؤرخ يضطر إلى الإعتماد على الرواية النصرانية على نحو أساسى ، لأن الرواية العربية ضنينة فى أحداث مثل بلاط الشهداء Tours-Poitiers[٤٦] وغزوات المسلمين فى غالة Gallia[٤٧] والمستوطنة الإسلامية فى فراكسينيتوم Fraxinetum[٤٨] ويفسر اقتضاب الرواية العربية لمعركة البلاط ١١٤ / ٧٣٢ ببلاغة الحادثة وروعتها ، ومثل ذلك فعله بالنسبة للقرن الأخير من تاريخ الأندلس وما تلاه .

---

(٤٤) دولة الإسلام فى الأندلس ع٣ ق١ ط١ ، ١٩٦٤ . ص ٦٥

(٤٥) المرجع نفسه ع٣ ق١ . ص ١٦١ .

(٤٦) المرجع نفسه ع١ ق١ الفصل السادس ، ص ٩٢ ـ ١١١ .

(٤٧) المرجع نفسه ع١ ق١ الفصل الخامس ، ص ٧٧ ـ ٩١ .

(٤٨) المرجع نفسه ع١ ق٢ الفصل الثالث ، ص ٤٦٤ ـ ٤٧٥ .

على أن المؤرخ فى تصويره لفتنة الشهداء بقرطبة لا يترك الرواية النصرانية طليقةً ، إنما هو يحلل الدوافع إلى هذه الفتنة ، ويفند دعاوى سيمونيت F. J. Simonet (٤٩) وغيره من المتعصبين (٥٠) .

ومع أن المنصور العامرى (٣٦٨ / ٩٧٨ ـ ٣٩٢ / ١٠٠٢) لم يصادف هزيمةً واحدةً فى حملاته المتعددة ضد نصارى الشمال ، فإن المؤرخ لا يستنكف عن الإتيان بالرواية النصرانية التى تدعى هزيمته أو عدم ظفره فى آخر معاركه سنة ٣٩١ / ١٠٠١ . وقد ذهب بعض المؤرخين المحدثين إلى تصديق هذه الرواية ، لكن عنانًا يفندها ، لأن الملوك النصارى الذين نسب إليهم اشتراكهم فى المعركة كانوا قد ماتوا جميعاً قبل هذه المعركة بسنوات ، ثم إن الرواية الإسلامية لا تذكر هذه الهزيمة المدعاة للمسلمين ، فى حين ذكرت هزائم أخرى لهم (٥١) .

إلى جانب ذلك ، فقدكان لثقافة المؤرخ الواسعة ، أثرها الوافر فى موسوعته ، فأفاد بمناهج علم النفس فى تحليله لشخصية المهدى بن تومرت (ت ٥٢٤ / ١١٣٠) ، ويستخرج من كونه حصوراً لا يأتى النساء ، ما يفسر قسوته وظمأه إلى سفك الدماء (٥٢) .

---

(٤٩) انظر ما ورد بهذا الشأن فى كتابه :

Historia de los Mozárabes de España Madrid 1897 .

الفصول من الثالث عشر إلى الحادى والعشرون .

(٥٠) دولة الإسلام فى الأندلس ع١ ق١ ، ص ٢٦٧ وما بعدها .

(٥١) المرجع نفسه ع١ ق٢ ، ص ٥٦٣ ـ ٥٦٦ .

(٥٢) المرجع نفسه ع٣ ق١ ، ص ١٩٢ .

في هذا الإبان توصل عنان إلى بعض الحقائق التي كانت محجوبةً قبلاً ، أو إلى تدعيم لها في حال سبق كشفها ، وإذا كان ليفي بروفنسال هو أول من توصل - من خلال نص في البيان المغرب - إلى حقيقة زائدة Zaida أو سيدة Ceide حظية ألفونسو السادس ملك ليون Léon (١٠٦٥ - ١١٠٩) وأكد إنها لم تكن ابنة المعتمد بن عباد وإنما كانت كنته ، فإن عنانًا يعثر على نص آخر في المعيار المغرب يؤكد هذه الحقيقة (٥٣).

إعتمد المؤرخ إعتماداً فائقًا على المصادر الأصلية ، وخاصةً المجموعة المعروفة بإسبانيا المقدسة España Sagrada وتضم حوليات هامةً مثل حولية ايسيدور الباجي Isidorus Pacensus وحولية رودريك الطليطلي Rudericus Toletanus وحولية ألفونسو العالمEl Sabio ، كما كان له ولع خاص بالوثائق المعاصرة مثل الوثائق العربية والمستعربية والمدجنية والقشتالية ، وغيرها من الوثائق المبثوثة في دور المحفوظات العامة بمجريط Madrid وشنت منكش Simancas وبرشلونة Barcelona وبلنسية Valencia وغرناطة وبنبلونة Pamplo-na وسرقسطة Zaragoza وخزائن الكتب في الإسكوريال Escurial والفاتيكان والمعهد المصري للدراسات الإسلامية والقرويين والرباط وغيرها .

---

(٥٣) راجع مناقشة الأستاذ عنان لهذه القضية في المرجع نفسه ، ع٢ ، ص ٣٤٥ - ٣٤٨ .

أما عن المصادر العربية ، فقد كان يتعقبها مخطوطةً ومنشورةً ، وربما كان عنان هو أول من نوه من المحدثين بالمؤرخ الكبير أبى مروان ابن حيان ومقتبسه ، وقد تعقب أسفاره فى بقاع شتى ، وانتفع بقسم من السفر الثانى كان فى حوزة ليڤى پروڤنسال وضاع بعد ، وما يرد عند عنان بخصوص هذا القسم هو مصدرنا الوحيد حتى الآن . ومن نقوله الهامة عنه كتاب الحكم (١٨٠ / ٧٩٦ ـ ٢٠٦ / ٨٢٢) إلى الكور بخصوص ثورة الربض [٥٤]، وكذا كتاب عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ / ٨٢٢ ـ ٢٣٨ / ٨٥٢) إلى ملك الروم مع الشاعر الغزال (ت ٢٥٠ / ٨٦٤) وتفاصيل السفارة [٥٥].

ومن المؤرخين المحدثين عاود مؤرخنا دوزى R. Dozy وليڤى پروڤنسال ومننديث پيدال R. Menédez Pidal وسيمونيت ورييرا J Ribera وجونثالث پالنثيا A. Gonzáles Palencia وكوديره F. Codera وغيرهم . بل إنه يعاود كوندى J. A. Conde الذى حظى بنقد لاذع من لاحقيه[٥٦]، ويقرر مزية هذا المؤرخ فى كونه أول جهد

---

(٥٤) المرجع نفسه ع١ ق١ ، ص ١٠٣ ـ ١٠٤ .

(٥٥) المرجع نفسه ، ع١ ق١ ، ص ١٦١ ـ ١٦٣ .

وقد وقف الأستاذ الفاضل محمود مكى مؤخراً على النسخة الوحيدة من هذا السفر ، وقام على تحقيقها ونشرها .

(٥٦) راجع ما كتبه دوزى عن كوندى فى مقدمة كتابه :

Spanish Islam, A History of the Moslems in Spain , Trans , by F. G. Stokes, London, Cass 1972, p. XXXV .

غربى يعتمد على مصادر عربية أبدى خلالها قدراً كبيراً من الحماسة للعرب والإشادة بهم ، ويصدر فى بعض المواطن أحكاماً قاسيةً على أمته ومواطنيه ، وخاصةً سياستهم بعد سقوط غرناطة [٥٧] .

إلى جانب هذه المصادر ، فقد توافر لمؤرخنا مصدر آخر ، هو رحلاته العديدة إلى مسرح الأحداث ، وهو يتأمل الصخرة المنيعة فى كوڤادونجا Cova Donga هذه الصخرة التى تكسر عندها المد الإسلامى الأول [٥٨] ، ويزور شنت ياقب Santiago de Compostela ويتنفس الجو المشبع بالجلال والوقار [٥٩] ، ويتملى أطلال الزهراء[٦٠] ويتحسر على البقية المشوهة من قصر الجعفرية فى سرقسطة[٦١] ، ويترحم على المعتمد فى مثواه بأغمات[٦٢] و ويحج إلى مكة المهدى فى تِينَمَلَّل [٦٣] ، ويعيش الهزيمة المروعة فى العقاب ، ويعثر على سهام خلفها أبناء قومه وراءهم[٦٤] أما عن مملكة غرناطة

---

(٥٧) دولة الإسلام فى الأندلس ع٤ ، ص ٥٠٦ ، وانظر أيضاً مواقف حاسمة ، ص ٣٣٢ .

(٥٨) دولة الإسلام فى الأندلس ع١ ق١ ، ص ٢١١ .

(٥٩) المرجع نفسه ع١ ق١ ، ص ٢٢١ .

(٦٠) المرجع نفسه ع١ ق٢ ، ص ٤٢٢ .

(٦١) المرجع نفسه ع٢ ، ص ٢٨٣ .

(٦٢) المرجع نفسه ع٢ ، ص ٣٦٣ ـ ٣٦٤ .

(٦٣) المرجع نفسه ع٣ ق١ ، ص ٤ .

(٦٤) المرجع نفسه ع٣ ق٢ ، ص ٣٠١ ـ ٣٠٢ .

القديمة فقد كتب يقول :(٦٥)

« ولقد كان لهذا التجوال المستفيض فى مواطن الأحداث ، وهذه المشاهدات العديدة للديار والربوع أعمق الأثر فى نفسى وفى ذهنى وفى تكييف قلمى ، حتى لقد كنت أشعر حين تدوين الحوادث وأمام مخيلتى تلك الأماكن والمشاهد ، أننى كأنما قد عشت فى تلك الأيام وفى تلك الربوع ، وبين أولئك الناس أبطال المأساة ، الذين أتتبع سيرهم ومصائرهم » .

- 9 -

إذا نحن تتبعنا المؤرخ فى موسوعته ، نجده يتعاطف مع الأندلسيين، بل ينحاز إليهم ، ففى تحليله لشخصية عبد الرحمن الداخل (١٣٨ / ٧٥٥ ـ ١٧٢ / ٧٨٨) يصفه بالميكافيلية ، إلا أنه يتلمس الذرائع له(٦٦)، بل ويتلمسها للمنصور بن أبى عامر لدى قتله ولده ، ويقرر أن هذا الولد لم يكن ليتورع عن قتل أبيه فى حال نجاح مسعاه(٦٧)، ويقول :(٦٨) « لعل الإسلام فى شبه الجزيرة الإسبانية ، لم

---

(٦٥) المرجع نفسه ع٤ ، القاهرة ط٣ ، الخانجى ١٩٦٦ ، ص ٨ .

(٦٦) المرجع نفسه ع١ م١ ، ص ١٩٤ .

(٦٧) المرجع نفسه ع١ م٢ ، ص ٤٥٠ ، ٥٥٠ ـ ٥٥١ .

(٦٨) المرجع نفسه ع١ م٢ ، ص ٥٦٩ .

يظفر قط بمجاهد فى بطولة المنصور وتفانيه فى الذود عن دينه وإعلاء كلمته ، ولعل الأندلس لم تر قط مثل المنصور ، زعيمًا أخلص فى خدمتها وكرس جهوده ومواهبه فى بناء قوتها وعظمتها وسحق عدوها وتحقيق أمنها ورخائها » .

عندما يقع الصدام بين الأندلسيين والمرابطين ، يوالى الأندلسيين ، ويقسو على يوسف بن تاشفين (٤٦٢ / ١٠٦٩ ـ ٥٠٠ / ١١٠٦) لقسوته عليهم ، ورغماً عما قيل من اتصال المعتمد (٤٦١ / ١٠٦٩ ـ ٤٨٤ / ١٠٩١) بالنصارى فإنه يدافع عنه ، وينوه بدعوته إلى الوحدة بين المسلمين بعد سقوط طليطلة ، وينوه أيضًا ببسالته فى الزلاقة ، ويشير إلى أن بواعث اقتحام المرابطين لشبه الجزيرة لم تكن دينيةً فقط ، وإنما كانت دنيويةً قبل كل شيء ، ويتساءل عن ضرورة أن يبطش المرابطون بأمراء الأندلس ، هذه البطشة ، ويعامل المعتمد وأسرته هذه المعاملة ، وكان يكفى فى حال عقابه أن ينتزع من ملكه ويعتقل [٦٩] .

هذا كله فى عبارة أدبية راقية ، تذكرنا بويلز وماكولى وجبون ، بحيث يمكن أن نتعامل مع الموسوعة الأندلسية ، على إنها رواية أو دراما روائية ، عقدتها الصراع الدائم والدائب بين إسبانيا النصرانية وبين

(٦٩) المرجع نفسه ج٢ ، ص ٣٦٥ ، وانظر أيضًا تراجم إسلامية ، ص ٢٢٣ و٢٢٤ .

إسبانيا الإسلامية ، ذلك الصراع الذى يدعوه الإسبان بالاسترداد ، ولحظة التنوير هى النهاية الحزينة ، بطرد العـرب من إسبانيا . لكن عنانا يدنى من قساوة هذه النهاية بما شنه الأندلسيـون المطرودون مـن حرب مضادة مع الأخوين عروج وخير الدين المعروف بذى اللحية الحمراء Barbarossa(٧٠) ، كما يدنى من حدة هذه النهاية أيضًا بما خلفه المسلمون وراءهم من آثار باقية فى إسبانيا والبرتغال ، تعطى الإحساس بتواصل تاريخهم عبر الزمان .

- 10 -

فى عمل عملاق محلق ومحدق يكون من الطبيعى أن تقع هنات لا تنقص بحال من روعته ، فالمؤرخ يصدق رواية ابن خلدون(٧١) عن عزم موسى بن نصير أن يلحق ببلاد الشام عن طريق القسطنطينية(٧٢) وهذا فرض بعيد ، لا تدعمه ديناميات الفتح الإسلامى ، وهو يجعل منصب القـومس Comes لإدارة شئـون أهل الذمـة من نصـارى ويهود(٧٣) ، والصحيح النصارى فقط ، لأنه كان لليهود لهم رئيسهم

---

(٧٠) راجع ما ورد بشأن جهاد الأندلسيين والأخوين بربروسا ، المرجع نفسه ع٤ الفصل الأول من الكتاب الرابع ، ص ٣٧٨ ـ ٣٩٢ .

(٧١) كتاب العبر بولاق . جـ٤ ، ص ١١٧ .

(٧٢) دولة الإسلام فى الأندلس ع١ ق١ ، ص ٥٣ ـ ٥٤ .

(٧٣) دولة الإسلام فى الأندلس ع١ م١ ، ص ٢٥١ ، ع٤ ، ص ٦٧ .

المستقل ويدعى الناجد [٧٤]، أما يوسف الفهرى آخر ولاة الأندلس فلم يكن ابناً لعبد الرحمن بن حبيب الفهرى المتغلب على إفريقية ـ كما يذهب عنان[٧٥] ـ والصحيح أنهما ينتميان إلى الدوحة نفسها التى تصلهما بعقبة بن نافع .

على أن أكبر هذه الهنات هى تركيز المؤرخ على التطور السياسى وحده ، الأمر الذى حفزه فى موسوعته الثرة إلى أن يمضى بتاريخه للأندلس فى عصرى المرابطين والموحدين فيؤرخ أيضاً للمغرب المعاصر لهذه المرحلة ، من حيث أن القطرين كانا يخضعان على الإجمال لسيطرة سياسة واحدة ، وكان أحرى به أن يقصر جهده على الأندلس فحسب . هذا الإحساس الجارف بالتطور السياسى أدى بالمؤرخ إلى أن لا يعطى الاهتمام الكافى للتطور الاقتصادى ـ الاجتماعى ، وهو فى تحليله للفتنة التى عمت أقطار الأندلس فى أواخر عصر الإمارة ، وبلغت أوجها على يدى عمر بن حفصون (ت ٣٠٥ / ٩١٨)[٧٦] لا يفيد من نص ابن الخطيب[٧٧] الخاص بأسبابها مع أنه يأتى به ،

---

(٧٤) راجع كتابنا تاريخ النصارى فى الأندلس . القاهرة ، ١٩٩٣ ، ص ٤٦ ـ ٤٧ .

(٧٥) دولة الإسلام فى الأندلس ع١ م١ ، ص ١٢٨ ـ ١٢٩ .

(٧٦) المرجع نفسه ع١ م١ ، ص ٢٨٨ وما بعدها .

(٧٧) أعمال الأعلام . تحقيق ليڤى پروڤنسال ، بيروت ، دار المكشوف ١٩٥٦ ، ص ٣٥ ـ ٣٦ .

كما يغفل ما ورد متناثراً فى الحوليات[٧٨] من مجاعات تكررت فى عهد الأمير محمد (٢٣٨ / ٨٥٢ ـ ٢٧٣ / ٨٨٦) ولم يحسن السياسة إزاءها ، فضلاً عن اشتعال العصبية عند العرب[٧٩] ـ سيما الشامية القيسية ـ وتبدو الفتنة وكأنها طموح أفراد يتطلعون إلى السلطة فحسب .

أما عن سقوط الخلافة الأموية ، ويخصه بفصلين[٨٠] فى عصره الأول ، فهو سرد متصل لوقائع ما جرى منذ مقتل عبد الرحمن شنجول فى سنة ٣٩٩ / ١٠٠٩ حتى نهاية دولة بنى حمود ، ولا نعرف ما هى الأسباب الكامنة وراء السقوط ، على أنه يعاود هذا الموضوع فى بداية عصر الطوائف [٨١]، ويحدده فى صراع العصبيات من عربية وصقلبية وبربرية .

وفى حديث المؤرخ عن خواص عصر الطوائف ، يشير إلى رسالة

---

(٧٨) ابن القوطية : تاريخ إفتتاح الأندلس . تحقيق إبراهيم الإبيارى ، القاهرة ١٩٨٢ ، ص ١٠٠ .

ابن حيان : المقتبس ، س٢ . تحقيق محمود مكى ، بيروت ، دار الكتاب العربى ١٩٧٣ ، ص ٣٤٣ .

(٧٩) ابن حبان : المصدر نفسه ، س ٣ ، نشر أنتونيا ، باريس ١٩٣٧ ، ص ٣ ، ٦٦ .

(٨٠) دولة الإسلام فى الأندلس ع١ م٢ ، ص ٦٤٢ ـ ٦٧٧ .

(٨١) المرجع نفسه ع٢ ، ص ١١ ـ ١٢ .

هامة للكاتب المعاصر ابن حزم (ت٤٥٦/ ١٠٦٤)[٨٢] ينتقد فيها حكام عصره[٨٣] ، هذه الرسالة مهمة ، ويمكن أن تستخرج منها معلومات مفيدة عن الأحوال الاقتصادية والاجتماعية لهذا العصر ، لكن المؤلف يكتفى بأن يستخرج ما يشى بالمغارم الفادحة التى فرضها ملوك الطوائف على شعبهم .

كان من الأوفق للمؤرخ أيضًا أن يبدأ موسوعته بإحاطة جغرافية لشبه الجزيرة الأندلسية وهو ما أهم ابن الخطيب[٨٤] فى تأريخه لغرناطة. وهذه ضرورة لا بد منها للتعرف على الأرض التى استحرّت بها هذه الملحمة الأندلسية .

على أن لمؤرخنا عذره الواضح فى التركيز على التطور السياسى ، بسبب فقد العديد من المصادر بعد طرد العرب ، ثم إن التاريخ الأندلسى له طبيعة سياسية ، ومعظمه حروب وقعت بين المسلمين بعضهم ضد بعض أو بين المسلمين وبين نصارى الشمال ، الأمر الذى دفع الإسبان أنفسهم إلى أن يلخصوا تاريخهم الوسيط كله فى إنه تاريخ

---

(٨٢) رسالة التخيص (فى الرد على ابن النغريلة اليهودى ورسائل أخرى) . تحقيق إحسان عباس ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص١٧٣ _ ١٧٤ وما بعدها .

(٨٣) دولة الإسلام فى الأندلس ع٢ ، ص ٤٢١ _ ٤٢٢ .

(٨٤) الإحاطة فى أخبار غرناطة . تحقيق محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، الخانجى ١٩٧٣ جـ١ ، القسم الأول ، ص ٩١ _ ١٤٣ .

حركة الاسترداد La Reconquista ، وهي ما يعبر عنها فى بعض الأحيان بمعركة القرون الثمانى La Batalla de Ocho Siglos هذه الطبيعة السياسية لتاريخ الأندلس ، جعلت المصادر حتى فى حال توافرها تغفل الجوانب الاجتماعية أو تشير إليها من بعيد .

- 11 -

لم يقف المؤرخ عند حد الترجمة أو التأليف ، بل اجتاز إلى مجال التحقيق، وهو نشاط بدأه فى مطلع السبعينيات ، بعد أن أنجز موسوعته فى طبعاتها المتعددة ، فأخرج كتابين هامين للسان الدين بن الخطيب، هما الإحاطة فى أخبار غرناطة وريحانة الكتاب ونجعة المنتاب [٨٥]، والكتابان يقعان على التخوم بين التاريخ والأدب ، وإن كانت مساحة الأدب أوفر فى الريحانة . والكتاب الأول ـ كما يتضح من اسمه ـ يختص بمدينة غرناطة وأحوازها من جغرافية وخطط وأخبار ومن نبه من أهلها وتاريخ الأسرة النصرية الحاكمة ، أما الريحانة فتضم نبذاً من مقدمات كتب ابن الخطيب ورسائله ونماذج من كتاباته الرسمية ، خاصةً الصادرة عن سلاطين المغرب والأندلس ومخاطباته لهم ولغيرهم ومجموعاً من رسائله وكتبه الصغيرة .

---

(٨٥) القاهرة ط١ ، الخانجى ١٩٨٠ .

ويلاحظ على عنان فى تحقيقه للريحانة أنه يقف فى معظم الأحوال عند حد المقابلة بين المخطوطات المختلفة بما يفيد تصحيح النص ، ونادراً ما يخرج الأشعار أو النصوص أو يعلق على حادثة أو يشير إلى موضع مدينة ، وفهارسه تقف عند فهرسين أحدهما للبلاد والآخر للأعلام .

توفر المؤرخ أيضًا فى سنى حياته الأخيرة على فهرسة القسم التاريخى من الخزانة الملكية بالرباط ، وقد صدر هذا القسم فى عام ١٩٨٠ ، ويتضح جهده فى التعريف بالمخطوط ووصفه وذكر مؤلفه ، كما يعرف بمحتواه ، ويشير إلى نظائره فى المكتبات الأخرى ، مع الإحالة إلى معاجم الفهارس العالمية ، مثل بروكلمان وسزكَين والإسكوريال والمتحف البريطانى وغيرها .

تنتهى الرحلة فى العشرين من يناير ١٩٨٦ ... ونتساءل : هل مصادفة ينتهى محمد عبد الله عنان من تأريخه لثغر عربى ضاع فى وقت يضيع ثغر عربى آخر ؟؟

نتساءل أيضاً أين محمد عبد الله عنان من تقدير الدولة ؟؟

فى هذا الزمان الردئ يصير من اللائق أن يحظى من هم دون عنان بتقدير الدولة ، ويصير من اللائق أيضًا أن يحظى هو بتقديرنا ، وهذه جائزة وأية جائزة .

الفصل الخامس

الطوائف ودورها فى ضياع الأندلس

فى اليوم الثانى من يناير ١٤٩٢ / الثانى من ربيع الأول ٨٩٧ ، ارتفعت راية القديس يعقوب[١] وراية قشتالة Castilla[٢] فوق أعلى الأبراج بحمراء غرناطة Granada ، وحان لشمس الأندلس أن تغيب .

وظاهرة تاريخية هامة كضياع الأندلس جديرة بالدراسة ، وربما لا يوجد فى المكتبة العربية كتاب يعالج المقدمات التى أفضت إليها .

بيد إنه مما لا شك فيه أن دول الطوائف[٣] أو ممالك الطوائف كانت علامةً هامةً ، بل العلامة الأهم ، على الطريق إلى ضياع الأندلس .

(*) نشرت هذه الدراسة فى مجلة المؤرخ المصرى ، العدد الثالث ١٩٨٩ .

(١) أوشنت ياقب Santiago de Compostela ، وهو القديس الحامى لإسبانيا.

(٢) وهى كبرى الممالك الإسبانية ، وقامت بالدور الأوفى فى النضال ضد المسلمين .

(٣) انتقل مصطلح طائفة (وطوائف) إلى اللغة الإسبانية فصار Taifa و (Taifas).

ودول الطوائف تعبير عن تعدد الولاءات السياسية بشبه الجزيرة ، في مقابل ولاء سياسى واحد فى المرحلة السابقة ، هو الولاء للأسرة الأموية .

مجموع هذه الدول نحو من عشرين دولةً ، تفرقت إليها البلاد فى مطالع القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، وقد انتهت الحال بهذه الدول أو الممالك إلى سقوطها فى أخريات هذا القرن ، الواحدة تلو الأخرى فى أيدى المرابطين حكام المغرب . أو فى أيدى الإسبان ، ونستثنى هنا مملكة سرقسطة Zaragoza التى امتد بها العمر إلى أوائل القرن التالى .

كمقدمة فتح العرب الأندلس فى سنة ٩٢ / ٧١١ ، وفى سنة ١٣٨ / ٧٥٥ أسس عبد الرحمن الداخل (١٣٨ / ٧٥٥ ـ ١٧٢ / ٧٨٨) الإمارة الأموية التى تحولت على يدى عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ / ٩١٢ ـ ٣٥٠ / ٩٦١) فى سنة ٣١٦ ـ ٩٢٩ إلى خلافة أموية . وفى المرحلة الأخيرة من هذه الخلافة ، استبد بالحكم فى الأندلس الحاجب المنصور بن أبى عامر (٣٦٨ / ٩٧٨ ـ ٣٩٢ / ١٠٠٢) ثم ولداه المظفر (٣٩٢ / ١٠٠٢ ـ ٣٩٩ / ١٠٠٨) والناصر .

يبدأ عصر الطوائف بنهاية الدولة العامرية فى سنة ٣٩٩ / ١٠٠٩ .. ونتساءل لماذا ، وخلال سنوات قليلة انتثر عقد الدولة الأندلسية .

- 1 -

فى تقديرنا إن ظاهرة الطوائف هذه كانت تعبيراً عن الخصوصية الأندلسية(٤) فى أوجها ، والمنطلق لهذه الخصوصية هو البيئة ، فنحن نلاحظ فى شبه الجزيرة تبايناً فى سطح الأرض ، وتقطعًا حاداً له ، وتعدداً للأقاليم المناخية والغطاء النباتى وأنماط الحياة الاقتصادية ، وهو ما أعان على أن يعيش السكان فى مجتمعات صغيرة ، منعزلة بعضها عن بعض ، تختلف فيما بينها فى درجات الحضارة وطرائق التفكير ، بحيث صار الولاء لمجتمع من هذه المجتمعات ، يفوق فى أحيان كثيرة الولاء للمجتمع الكبير . وقد استجاب الرومان ، ومن بعدهم القوط ثم العرب لهذه الظاهرة ، فجعلوا الأقسام الجغرافية أقساماً إدارية .

البيئة إذن أسهمت فى تكريس هذه الولاءات المحلية ، وفى نجوم الفتن والثورات بين حين وآخر ، الأمر الذى لم يكن يجعل لأية معركة نتيجةً حاسمةً ، ولفظة Guerilla ومعناها حرب صغيرة (٥)، لفظة ابتكرها الإسبان ، ونقلتها عنهم اللغات الأخرى دون تغيير .

---

(٤) راجع فى هذا الشأن كتابنا الموسوم «بالخصوصية الأندلسية وأصولها الجغرافية». القاهرة ، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، ١٩٩٥ .

وراجع أيضاً :

Menéndez Pidal R : The Spaniards in their history . Trans by Walter Starkie, London, Hollis & Certer 1950 . Passim .

(٥) ومعناها اصطلاحياً حرب العصابات .

فى التطبيق ـ وكمثال ـ فإن الجبال الشمالية الوعرة باقليم جليقية Galicia ، كانت وراء عصيان بلاى Pelayo ، وبزوغ نواة المقاومة النصرانية فى مغارة أونجا Covadonga ، بعد سنوات قليلة من الفتح . ويعد الإسبان هذا العصيان بدايةً لحرب الاسترداد La Recon-quista أو معركة القرون الثمانى La Batalla de Ocho Siglos .

على أنه ورغمًا عن هذه المحلية الواضحة فإن الشعب الأندلسى ، وإن تعددت أعراقه ، إلا أنه كان ـ على نحو عام ـ ينتمى إلى أرومة إسبانية، ولم يكن العرب ولا البربر ولا غيرهم من المسلمين الطارئين سوى أقليات ، تتفاوت فى العدد ، وتتفاوت على نحو أوضح فى مواقعها من السلم الاجتماعى ، وبعد فتن داخلية متعددة ، بدأت فى أعقاب الفتح، واستمرت متقطعةً نيفًا ومائتى عام ، وشارك فيها النصارى الذمة(٦) . كانت العصبية قد هدأت إلى حد كبير ، ومضى الشعب الأندلسى خطوات واسعة نحو الإندماج ، بحيث جاز أن نتحدث عن شعب أندلسى واحد ، يدين معظمه بالإسلام .

كان هذا الشعب ولأسباب كثيرة ، يشعر بالزهو إزاء أنداده المسلمين بالمشرق ، بل ويشعر بالزهو أيضًا تجاه المسلمين بالعدوة

---

(٦) أو النصارى المعاهدون أى الذين لهم عهد وعرفهم نصارى الشمال بالمستعربين Mozárabes .

المغربية ، وتعبر عن ذلك رسالة مشهورة(٧) للفقيه الكبير والأصولى أبى محمد بن حزم (ت ٤٥٦ / ١٠٦٤) .

هذا الشعور العارم بالأندلسية كان يؤدى فى أحوال عدة إلى نفور واقع بين الأندلسى وبين المغربى الوافد إليه عبر البحر ، والذى كان وفوده يرتبط على نحو أساسى بمحنة يمر بها رفيقه الأندلسى فى مواجهة نصارى الشمال .

كذلك فإن هذا الشعور كان يؤدى إلى إقامة علاقات تحتية بين مسلمى الأندلس وبين نصارى الشمال ، هى علاقات فى معظمها طيبة يسودها التسامح (٨) ، ولم يكن الأندلسى القادم من دار الإسلام يجد غضاضةً من المقام بدار الحرب ، وكذلك كانت حال قرينه النصرانى القادم من هذا الدار إلى دار الإسلام (٩) . بل إن المسلم المدجن(١٠) الذى تحول ولاؤه السياسى إلى النصارى ، لم يكن ليشعر

---

(٧) أنظر نص الرسالة فى المقرى : نفح الطيب . تحقيق إحسان عباس . بيروت ، دار صادر ١٩٦٨ م ٣ ، ص ١٥٦ ـ ١٧٩ .

(٨) يرتبط التعصب عند الجانب النصرانى بالقرن الخامس عشر وما تلاه ، وإلى هذه المرحلة ينتمى ديوان التحقيق La Inquisición .

(٩) ليفى بروفنسال : الإسلام فى المغرب والأندلس . ترجمة السيد عبد العزيز سالم ، محمد صلاح الدين حلمى . القاهرة ، نهضة مصر ١٩٥٦ ، ص ٢٨٤

فى الغالب بتغيير كبير فى حاله ، خصوصًا وأن جيرانه ومن يتعاملون معه من هؤلاء النصارى ، كانوا على دراية بالعربية أو يتحدثون بها وقد يجيدونها (١١) .

الأكثر من ذلك ، فقد حارب بعض النصارى مع المسلمين كمرتزقة ، ومن المسلمين من كانوا يفعلون ذلك فيحاربون مع النصارى ، ولدينا مثال واضح فى ملحمة السيد el Poema de Mío Cíd التى استوحاها بعد فترة طويلة الشاعر الفرنسى، كورنى Corneil.

- 2 -

لم تكن لهذه الخصوصية آثار فادحة إبان الفترة الأموية ، على أن هذه الآثار تبدت فيما بعد ، وأعانت الطوائف على تكريسها ، أو بالأحرى تكريس الجوانب السلبية منها .

---

(١٠) المدجنون : Mudéjares هم المسلمون الأندلسيون الذين آثروا البقاء فى ديارهم بعد سقوطها فى أيدى الإسبان .

(١١) تعبر عن ذلك الوثائق المنسوبة إلى مستعربى مدينة طليطلة Toledo النصارى وتعود إلى القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، وقام على نشرها حونثالث بالنثيا Angel González Palencia فى السنوات ١٩٢٦ - ١٩٣٠.

ذكرنا إنه حدث ثمة انسجام للشعب الأندلسى فى عصر الخلافة ، على أن هذا العصر كان يحمل فى طياته جرثومة فنائه ، فقد كان النظام الحربى ، يرتبط على نحو أساسى بأبناء هذا الشعب ، وخاصةً من يتحدر من أصل شامى . وجاور هؤلاء الأجناد أجناد طارئون على الأندلس ، يتحدرون من أصل صقلبى أو من بربر العدو ، وهم غير بربر الأندلس ، الذين كان قد تم اندماجهم فى الشعب الأندلسى . وكانت الإستعانة بهؤلاء تتم على نحو ثانوى فى الفترة السابقة لعصر الخلافة ، لكنها وضحت فى هذا العصر ، بل امتد الأمر إلى الإستعانة بأجناد نصارى من الأندلس ، ومن ممالك الشمال ، سيما فى عهد المنصور بن أبى عامر [١٢] .

نتج عن استقدام الغرباء وترفيعهم على أهل الأندلس فوران اجتماعى ، عبرت عنه الحركة الشعوبية التى تأخرت فى الأندلس عنها فى المشرق . ومن مظاهرها رسالة ابن غرسية المشهورة فى تفضيل العجم [١٣] .

---

(١٢) راجع فى هذا الشأن ما ورد فى الحولية السيلوسية والحولية العامة لاذفونش العالم .

Simonet , J : Historia de Los Mozárabes de España . Madrid 897 ,p. 630 Nota n.I.

(١٣) نشرت ضمن مجموعة نوادر المخطوطات . المجموعة الثالثة . تحقيق عبد السلام هارون . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٣ . =

نتج أيضاً عن استقدام هؤلاء نفور أجناد الأندلس الأصليين منهم، هذا النفور الذى يتضح فى موقعة الخندق Alhandega فى سنة ٣٢٧/ ٩٣٩ . وقد هزم فيها الخليفة الناصر هزيمةً كبيرةً [(١٤)] ، ومع ذلك فلم يتوقف عن سياسته فى استقدام الصقالبة ، وبلغ عددهم فى مدينة الزهراء وحدها لدى وفاته ٣٧٥٠ عدا النساء [(١٥)] .

لم يقف الأندلسيون - والعرب منهم - صامتين إزاء هذا الإنقلاب، فقد وقعت منهم عدة مؤامرات للتخلص من الصقالبة ، كانت إحداها مؤامرةً كبيرةً قمعها المظفر ولد المنصور [(١٦)] . كما كانت للأندلسيين مجابهات عديدة مع البربر ، أسفرت عن تخريب هؤلاء لقرطبة Córdoba عند اقتحامهم لها فى سنة ٤٠٣ / ١٠١٣ .

= ص ٢٤٦ - ٢٥٤ . وتوجد نسخة منها فى ابن بسام : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة . تحقيق إحسان عباس . بيروت ، دار الثقافة ١٩٧٩ . ق٣ م٢ ، ص ٧٠٥ - ٧١٤ .

(١٤) أخبار مجموعة فى فتح الأندلس . نشر لافوينتى ألكنترا مدريد ١٨٦٧ . ص ١٥٥ - ١٥٦ .

(١٥) ابن الخطيب : أعمال الأعلام . تحقيق ليفى بروفنسال . بيروت ، دار المكشوف ١٩٥٦ . ص ٤٠ - ٤١ .

(١٦) ابن بسام : المصدرنفسه ق ١ م ١ ، ص ١٢٣ - ١٢٨ ، ابن عذارى : البيان المغرب . تحقيق ليفى بروفنسال .بيروت ، دار الثقافة ، د. ت . ص ٢٧ - ٣٦ .

ويصور الكاتب المعاصر أبو محمد بن حزم هذا التخريب فى عبارة مشجية وردت بكتابة الطوق [١٧] .

ويرتبط النظام الحربى بنظام الأرض ، فقد كان هذا النظام يقوم على أساس إقطاع كور معينة للأجناد العرب يقيمون بها ، ويقدمون فى المقابل عدداً معيناً منهم ، يتناسب مع حجم الكورة وخطرها [١٨] . لكن المنصور فى إجهازه على العصبية العربية ، أجهز على هذا النظام[١٩] ، وجعل ارتزاق الأجناد ــ وقد أصبحوا فى معظمهم من الغرباء ــ مشاهرةً [٢٠] ، وكان هدفه من ذلك أن يشعر هؤلاء بالانتماء له . على أن هذا الشعور تحول بعده إلى انتماء إلى شخص الحاكم ، وليس إلى الدولة ، وعندما وقعت نزاعات على السلطة ، توزع ولاء الأجناد بين المتنازعين ، ولأنهم لم تكن لديهم اقطاعات ، فقد انصرف همهم إلى نهب العامة ، وشكلوا فى النهاية طبقةً عسكريةَ منفصلةً عن الشعب الأندلسى ، وكثير منهم لم يكن يحسن العربية[٢١] .

---

(١٧) تحقيق الطاهر مكى . القاهرة ، دار المعارف ١٩٨٠ ، ص ١٢٦ ــ ١٢٨ .

(١٨) ابن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة . تحقيق محمد عبد الله عنان . القاهرة ، الخانجى ١٩٧٣ . جـ١ ، ص ١٠٣ ــ ١٠٤ .

(١٩) المقرى : المصدر نفسه ، م١ ، ص ٢٩٣ .

(٢٠) الطرطوشى : سراج الملوك . القاهرة ، المطبعة الخيرية ١٣٠٦هـ . ص ١٠٠ .

(٢١) مثل بنى حمود وهم أدارسة علويون تبربروا ، ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ص ١٢١ .

أعان على تكوين هذه الطبقة ما جرى من رواج فى أواخر عصر الخلافة ، أدى إلى تراكم ما لديها من ثروات ، وأدى أيضًا إلى حال من الترف والترهل الاجتماعى عند طوائف الشعب الأندلسى المرتبطة بهذه الطبقة . يوضح ذلك أن مقادير الجباية فى عهد المنصور ، بلغت أربعة ملايين دينار ، عدا رسوم المواريث وأموال السبى والغنائم والمصادرات ، فى حين كانت النفقات تبلغ شهرياً نحو مائتى ألف ، ترتفع إلى خمسمائة ألف لدى الغزو (٢٢) .

على أن ثمة خطيئةً أساسيةً ارتكبها المنصور ، ففى غزواته المتوالية إلى دار الحرب ـ وقد بلغت نحو خمسين غزوة ـ كان يكتفى بالنصر، وليس بالنصر النهائى ، وهذه حلول وسطية ، أسفرت عن نتائج سلبية ، لأنها استفزت المشاعر الوطنية والدينية عند الجانب الآخر . ولم ينس النصارى ما فعله معهم فى غزوته الكبرى الثامنة والأربعين فى سنة ٣٨٧ / ٩٩٧ ، فقد أتى ببعض أسراهم يحملون على ظهورهم نواقيس الكنائس وصلبانها وأبوابها من قاصية بلادهم إلى حضرة قرطبة (٢٣) .

---

(٢٢) ابن الخطيب : المصدر نفسه ، ص ٩٨ .

(٢٣) المصدر نفسه ، ص ٦٧ ـ ٦٨ ، ابن خلدون : كتاب العبر . بيروت ، دار الكتاب اللبنانى ١٩٨١ . م٤ ، ص ٣٩٠ ، وانظر أيضًا محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام فى الأندلس . ع١ ق٢ ، ١٩٦٩ ، ص ٥٦٠ .

ويلاحظ أن فرذلند الثالث Fernando ملك قشتالة ١٢١٧ ـ ١٢٥٢ لدى استيلائه على قرطبة فى سنة ٦٢٣ / ١٢٣٦ استرد ما سبق واستولى عليه =

خطيئة أخرى ارتكبها المنصور . هى أن المساحات الواسعة التى استردها من النصارى أو استولى عليها ، وإن صارت جزءاً من دار الإسلام ، إلا إنها كانت فى واقع الأمر مناطق عازلةً أو مناطق منزوعة السلاح ، لم يهتم بتعميرها وتوطينها المسلمين ،بخلاف ما درج عليه النصارى لدى استيلائهم على أراض إسلامية ، فإنهم كانوا يعمرونها ، ويوطنون بها بعض العامة ، وبعض النصارى المهاجرين من الأندلس ، يقوم على خدمتهم رقيق مسلم ، ويقيمون بها قلاعًا احتشدت بفرسانهم ، ومن هنا أتى مسمى قشتالة وهى بلاد القلاع ، وإلى جوارها أديرة ، احتشدت برهبان متعصبين ، أسهموا على نحو وافر فى إشعال الروح الصليبية (٢٤) .

- 3 -

أسفر قيام الطوائف عن تكريس للطائفية السياسية ، فقد توزعت الأندلس ثلاث مجموعات من الممالك عربيةً وصقلبيةً وبربرية ، كما

= المنصور وعاد به على ظهور الأسرى المسلمين إلى شنت ياقب .

O'Callaghan : A History of Medieval Spain . Cornell 1975 , p.345 .

(٢٤) راجع كتابنا « تاريخ النصارى فى الأندلس . ص ٦٩ ، ٢٣٩ ـ ٢٤١ والمراجع المعطاة .

جنح الملوك إلى اتخاذ ألقاب ، لم يكن ليتخذها قبل ذلك غير الخلفاء، ولدينا مثال واضح فى بيتين مشهورين لابن رشيق القيروانى[٢٥] (ت ٤٦٣ / ١٠٧١) .

مما يزهدنى فى أرض أندلس

ألقاب معتضد فيها ومعتمد

ألقاب مملكة فى غير موضعها

كالهر يحكى انتفاخًا صولة الأسد

سعى الملوك أيضًا إلى أن يكون للواحد منهم بطانة من الشعراء ، يتغنون بفضائله وفضائل مملكته . ولدينا نموذج الشاعر ابن عمار (ت٤٧٧ / ١٠٨٥) مع الشاعر الملك المعتمد بن عباد (٤٦١ / ١٠٦٩ ـ ٤٨٤ / ١٠٩١) بإشبيلية Sevilla ، وغنى عن البيان إنه إلى عصر الطوائف ، ينتمى القسم الأكبر من تراث الشعر الأندلسى .

إلى جانب ذلك فقد اهتم الملوك بالعمائر والإنشاءات التى تخلد ذكراهم ؛ مثل قصر الجعفرية بسرقسطة ، وقد ابتناه صاحبها المقتدر بن هود (١٠٤٦/٤٣٨ ـ ١٠٨١/٤٧٤) وضم هذا القصر بهواً ذهبيًا ، دعى بمجلس الذهب ، وفيه يقول المقتدر[٢٦] :

---

(٢٥) ابن الخطيب: المصدر نفسه . ص ١٤٤ .

(٢٦) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب . تحقيق شوقى ضيف . القاهرة ، دار المعارف ١٩٥٥ . جـ٢ . ص ٤٣٥ .

قــصــر الســرور ومــجلس الذهب
بكمـــا بلغت نهـــاية الطرب
لو لم يحــز ملكى خــلافكمــا
كـــانت لدى كـــفـــاية الأرب

على أن هذه العمائر والإنشاءات كان ينصرف معظمها إلى غاية ترفية ، وليس ثم ضرورة أساسية لها .

ما دامت الطوائف قد استكملت استقلالها ، فإن كل واحدة منها كانت تسعى إلى الحفاظ على هذا الاستقلال من ناحية ، وإلى مد حدود سلطانها على حساب غيرها من ناحية أخرى ، وكان ذلك يتطلب نفقات باهظةً ، فسعى ملوكها إلى إرهاق رعاياهم بالفرائض والأموال . ويشير ابن حزم[٢٧] فى إحدى رسائله إلى أنهم ابتدعوا جزيةً على رءوس المسلمين يسمونها قطيعةً وتؤدى مشاهرةً ، وضريبةَ أخرى على أموالهم من الغنم والبقر والدواب والنحل ، ورسومًا تدعى القبالات تؤدى على ما يباع فى الأسواق ، ويشير أيضًا إلى تسليطهم اليهود فى جباية هذه الأموال .. الأكثر من ذلك أن الملك منهم فى حربه مع غيره من ملوك الطوائف ، كان يبيح رعية غريمه وهم مسلمون، لجنوده نصارى ومسلمين .

---

(٢٧) رسالة التلخيص (فى الرد على ابن النغريلة اليهودى ورسائل أخرى) ، تحقيق إحسان عباس . القاهرة ١٩٦٠ . ص ١٧٣ وما بعدها .

لم يقف الملوك عند هذا الحد ، فإنهم فى اصطراعهم مع بعضهم البعض ، سعوا إلى طلب العون من الملوك النصارى ، وكان هؤلاء يؤيدونهم بجنودهم ، فيتمكنون من حرم المسلمين وأبنائهم ورجالهم - على قول ابن حزم - يحملونهم أسارى إلى بلادهم .

لدينا أمثلة عديدة ، فقد تحالف المأمون بن ذى النون (١٠٤٣/٤٣٥ - ١٠٧٥/٤٦٧) ملك طليطلة مع غرسيه García Sánchez ملك نبرّه Navarra (١٠٣٥ - ١٠٥٤) ضد المقتدر بن هود ملك سرقسطة ، وتحالف هذا الأخير مع فرناندو Fernando ملك قشتالة (١٠٣٥ - ١٠٦٥) ضد خصيمه المسلم ... وهكذا نجد الملكين النصرانيين يعيشان فى وقت واحد وبمساعدة مسلمين فى أراضى مسلمين ، واستمر هذا العيث ثلاث سنوات ١٠٤٣/٤٣٥ - ١٠٤٦/٤٣٨[٢٨] .

لدينا مثال آخر ، فقد تحالف المعتمد ملك اشبيلية مع أذفونش Alfonso VI (١٠٦٥ - ١١٠٩) ملك ليون ، وأدى له خمسين ألف دينار ، فى مقابل أن يعينه على فتح غرناطة ، على أن تكون المدينة للمعتمد ، وذخائر القلعة الحمراء لأذفونش ، وفى الوقت نفسه سعى ملك غرناطة عبد الله بن بلقين (١٠٧٣/٤٦٥ -

---

(٢٨) ابن عذارى : المصدر نفسه ، جـ٣ ، ص ٢٧٧ - ٢٨٢ .

١٠٩٠/٤٨٣) إلى التحالف مع أذفونش نفسه ، دفعًا لأذاه ونكايةً فى المعتمد [٢٩] .

ولا بد ـ بطبيعة الحال ـ من مقابل ، وكان المقابل فى البداية مالاً يؤدى إلى الملك النصرانى ، لم يلبث أن تحول إلى جزية ، يقع عبؤها على الرعايا الأندلسيين ، ثم تحول إلى تنازل عن أراض إلى جانب الجزية .

والحقيقة إن الريادة فى هذا المجال تعود إلى الخليفة هشام المؤيد (٩٧٦/٣٦٦ ـ ١٠١٣/٤٠٣) الذى تنازل لملك قشتالة فى سنة ١٠١٠/٤٠١ عن مائتى حصن ، سبق أن ضمها أسلافه ـ أمويين وعامريين ـ وذلك مقابل توقى عدوان هذا الملك ، واتحاده معه ضد خصومه المنازعين له من البربر [٣٠] .

سياسة التنازلات هذه كانت تؤدى إلى مزيد من الدعم للجبهة النصرانية ، وإلى مزيد آخر من العدوان ، وعندما كان يتوقف ملك من ملوك الطوائف عنها ، فإن عقابه يكون شديداً . فقد امتنع المعتمد عن

---

(٢٩) الأمير عبد الله الزيرى : مذكرات الأمير عبد الله المسماة بكتاب التبيان . تحقيق ليفى پروفنسال . القاهرة ، دار المعارف ١٩٥٥ . ص ٦٩ ـ ٧٦ وانظر أيضاً محمد عبد الله عنان : المرجع نفسه ، ص ٦٢ .

(٣٠) ابن الخطيب : المصدر نفسه ، ص ١١٧ .

أداء الجزية فى سنة ٤٧٥ / ١٠٨٢ . وكان جزاؤه أن اقتحم أذفونش مملكته ، واخترقها حتى وصل إلى بحر الزقاق [٣١] ، وخاض بفرسه فى أمواجه [٣٢] .

إلى جانب ذلك فإن ملوك الإسبان وأمراءهم كانوا يستغلون تواجدهم فى مدينة إسلامية ضيوفاً عليها ، من أجل التجسس ، وكذا كانت حال أذفونش ، حين أقام بطليطلة ضيفاً على حاكمها ، إبان خلعه عن مملكته [٣٣] .

الخلاصة إن الأوضاع فى بلاد الأندلس على عهد الطوائف كانت غايةً فى التردى .

يقول أدفونش الذى دعا نفسه « بالإنبيطور ذى الملتين » [٣٤] أى إمبراطور النصارى والمسلمين ، يقول لسفير المعتمد لديه [٣٥] :

---

(٣١) أى مضيق جبل طارق Gibraltar .

(٣٢) مجهول : الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية . جـ ٦ ، تصحيح ى . علوش . رباط الفتح ١٩٣٦ . ص ٢٩ .

(٣٣) ابن عذارى : المصدر نفسع ، جـ٣ ، ص ٢٣٢ .

(٣٤) ويعرف أحيانا بالانبراطور ذى الملتين وهو ما يقابل فى الوثائق المعاصرة :

Imperator Constitutus super ommes Hispaniae nationes .

O'Callaghan : op, cit., p. 207 .

(٣٥) ابن الكردبوس : كتاب الاكتفاء . تحقيق أحمد مختار العبادى . مدريد ١٩٧١ . ص ٨٩ .

« كيف أترك قومًا مجانين ، تسمى كل واحد منهم باسم خلفائهم وملوكهم وأمرائهم ،كالمعتضد والمعتمد والمعتصم والمتوكل والمستعين والمقتدر والأمين والمأمون ، وكل واحد منهم لا يسل فى الذب عن نفسه سيفًا ، ولا يرفع عن رعيته ضيمًا ولا حيفًا ، قد أظهروا الفسوق والعصيان ، واعتكفوا على المغانى والعيدان ، وكيف يحل لبشر أن يقر منهم على رعيته أحداً ، وأن يدعها بين أيديهم سداً » .

فى عام واحد وهو عام ١٠٦٣/٤٥٦ ـ ١٠٦٤ سقط معقلان هامان في أيدى النصارى هما قلمرية Coimbra فى شمالى البرتغال الحالية وبَرْبَشْتَر Barbastro فى مملكة سرقسطة[٣٦] . وأثار ذلك شجون ابن حيان (ت٤٦٩/١٠٧٦) مؤرخ الأندلس الكبير وهو يعيش آخر أيامه فيقول :

« ولأشد مما أفشينا عند أولى الألباب ما أخفيناه مما دهانا من داء التقاطع ، وقد أخذنا بالتواصل والألفة ، وأصبحنا من استشعار ذلك والتمادى عليه ، على شفا جرف يؤدى إلى الهلكة لا محالة ، إذ قدر الله زمانها » .

(٣٦) راجع الرواية الضافية لسقوط بربشتر ، وما أحاط بهذا السقوط من طابع مأساوى حفز المسلمين على استردادها فى العام التالى فى ابن بسام : المصدر نفسه . ق٣ ، م١ ، ص ١٧٩ ـ ١٩٠ ، ابن عذارى : المصدر نفسه . جـ٣، ص ٢٢٥ ـ ٢٢٨ ، الحميرى : الروض المعطار فى خبر الأقطار . تحقيق إحسان عباس . بيروت ، مكتبة لبنان ١٩٨٤ . ص ٩٠ ـ ٩١ .

- 4 -

فى سنة ١٠٨٥/٤٧٨ وقعت الواقعة ، فقد سقطت طليطلة .

تخاذل ملوك الأندلس ـ باستثناء ملك بَطَلْيَوْس Badajoz عن نجدتها ، ولم ينصتوا إلى صريخ القاضى أبى الوليد الباجى (ت١٠٨١/٤٧٤) عندما دعاهم إلى الجهاد ذباً عنها (٣٧) ، وانصرف الواحد منهم إلى أمور مملكته وحدها ، بل إن المعتمد ـ وقد ملأه

---

(٣٧) ابن الأبّار : الحلة السيراء ، تحقيق حسين مؤنس القاهرة ، الشركة العربية للطباعة والنشر ١٩٦٣ . جـ٢ ، تر ١٢٨ ، ص ٩٨ .

وقد كان سقوط طليطلة فى أيدى النصارى شديد الوطأة على المسلمين ، فقد كانت قاعدة الأندلس فى القديم ، كما كانت قاعدة الثغر الأوسط ، وتميزت بحصانتها ، الأمر الذى أهلّها لتكون إحدى مدن الأندلس الأربعة الكبار : قرطبة . إشبيلية ، سرقسطة ، طليطلة .

يقول الشاعر ابن العسال :

يا أهل أندلس حثوا مطاياكم
فما المقام بها إلا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى
ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط
ونحن بين عدو لا يفارقنا
كيف الحياة مع الحيات فى سفط

المقرى : المصدر نفسه . م٤ ، ص ٣٥٢ .

الرعب من أذفونش ـ لم يوظف هذا الرعب فى مساندة المدينة التاعسة، ولم يتحرك لمواجهة ملك قشتالة ، إلا بعد أن تهدد هذا مملكته نفسها ، كما فرض حصاره على سرقسطة .

لم يجد ملوك الأندلس إلا أن يطلبوا معونة إخوانهم عبر البحر ، وكانت قد بزغت عندهم قوة صحراوية كبيرة ، هى قوة المرابطين وأميرهم يوسف بن تاشفين (١٠٧٣/٤٦٦ ـ ١١٠٦/٥٠٠) .

فى العام التالى حدثت واقعة الزلاقة Sagrajas وانتصر المسلمون المتحدون ـ أندلسيين ومرابطين ـ على خصيمهم الليونى ، الذى لم يتبق من جيشه البالغ نحو أربعين ألفا أو خمسين سوى مائة أو مئات[٣٨] .

لكن .. هل تعلم المسلمون من أخطائهم ، وأفادوا من تجاربهم ؟

بعد المعركة مباشرة ، إنقلب يوسف بن تاشفين عائداً إلى بلاده ، وكان بإمكانه ـ إذا أراد ـ أن يسترد طليطلة على الأقل ، لكنه لم يفعل، ففوت على المسلمين فرصةً عزيزةً ،وهيأ لأذفونش الفرصة لأن يلتقط أنفاسه ، ويبعث فى طلب عون إخوانه النصارى فى سائر شبه

---

(٣٨) راجع ابن الكردبوس : المصدر نفسه . ص ٩٤ ، الحلل الموشية ، ص ٤٩ .

الجزيرة وخارجها وكان هؤلاء يستعدون لأولى الحملات الصليبية[٣٩] .

في الوقت نفسه لم يلبث أن دبت النزاعات بين الأندلسيين بعضهم ضد بعض ، وبينهم وبين المرابطين ، بل سعى عدد منهم إلى الإتصال بالقشتاليين [٤٠]، ولم يراعوا أن هؤلاء لا عهد لهم ، فلدى فتحهم لطليطلة ، اقتحموا مسجدها الجامع بعد شهرين ، وحولوه إلى كنيسة جامعة ، بخلاف ما اتفق عليه في عهد التسليم [٤١] .

المقارنة مريرة بين موقف المسلمين بعد الزلاقة ، وبين موقف الليونيين بعد طليطلة ، فقد استثمر هؤلاء استيلاءهم على هذه المدينة أعظم استثمار ، إذ جعلوها عاصمةً لهم ، وكون العاصمة على التخوم مع الأعداء يشكل حافزاً لمواصلة النضال .

ظهر أثر ذلك كله في تعثر الحملة الإسلامية للاستيلاء على حصن لييط Alédo في سنة ١٠٨٨/٤٨١ [٤٢]، مما دفع ابن تاشفين في جوازه بعد سنتين إلى إزالة ملوك الأندلس جميعهم [٤٣] .

---

(39) O'Callaghan : op. cit., pp. 209 - 214 .

(٤٠) ابن خلدون : المصدر نفسه . م٦ ، ق١ ، ص ٣٨٤ .

(٤١) ابن بسام : المصدر نفسه . ق٤ م١ ، ص ١٦٨ .

(٤٢) الحلل الموشية . ص ٥٤ ـ ٥٧ .

(٤٣) نستثني هنا مملكة سرقسطة ، فقد تأخر سقوطها في أيدي المرابطين إلى سنة ١١١٠/٥٠٣ ثم فتحها ملك أرغونة أذفونش المحارب في سنة ١١١٨/٥١٢م.

على إنه مما لا شك فيه أن التفاوت الحضارى بين الأندلسيين وبين بربر العدوة ، وهو الذى نوهنا إليه من قبل ، وإحساس الأندلسيين العارم بخصوصيتهم وتفوقهم ، كان له دوره فى بروز قدر من عدم الثقة المتبادل بين الجانبين . ويعود ذلك إلى قبيل مقدم المرابطين ، وعبر عنه الرشيد ولد المعتمد بقوله : « يا أبتى : أتدخل علينا فى أندلسنا ، من يسلبنا ملكنا ويبدد شملنا » وإذا كان رد المعتمد بأن : « حرز الجمال والله عندى ، خير من حرز الخنازير » (٤٤) . وأظهر يوم الزلاقة بطولات ، استدعت ثناء المرابطين (٤٥) ، إلا إنه لم يلبث أن وقعت الجفوة بينه وبينهم ، وكاتب ملك قشتالة سراً (٤٦) .

وقد لعب المرابطون من ناحيتهم دوراً فى هذه الجفوة ، فقد تعاملوا مع الأندلسيين بخشونة ، يوضحها ما جرى للمعتمد ونفيه إلى أغمات وحبسه بها إلى أن مات فى الأصفاد ، وما جرى لزوجته وأبنائه وبناته من سبى وتشريد وقتل . بل إن المرابطين انصرفوا فى اقتحامهم لإشبيلية وغيرها من مدائن الأندلس إلى قتل المواطنين العاديين وسبيهم ونهبهم (٤٧) ، وهو ما ينهى عنه الشرع . مما دفع ابن الأفطس عمر

---

(٤٤) الحلل الموشية . ص ٣١ - ٣٢ .

(٤٥) المصدر نفسه . ص ٤٢ ، الحميرى : المصدر نفسه . ص ٢٩١ .

(٤٦) الأمير عبد الله الزيرى : المصدر نفسه . ص ١٦٩ .

(٤٧) راجع الفصل الضافى عن المعتمد ومأساته فى عنان : تراجم إسلامية شرقية وأندلسية ، القاهرة ، الخانجى . ١٩٧٠ . ص ٢١٢ - ٢٢٤ ، دولة الإسلام، ع٢ . ص ٣٤٨ - ٣٧٣ والمراجع العطاة .

المتوكل ملك بطليوس ، لأن يتنازل لاذفونش عن ثلاث مدن هامة ، فى مقابل أن يساعده ضد المرابطين ، كما إن أحد أبنائه لجأ إلى الليونيين ، وأقام عندهم وتنصر[٤٨] . الأكثر من ذلك ، فقد أقام المرابطون بالمغرب والأندلس حكومة ثيوقراطية ، يسيطر عليها الفقهاء ، جنحت إلى مطاردة الفكر الحر ، ومطاردة كتب أحد أئمة المسلمين الكبار ، هو الإمام الغزالى (ت٥٠٥ / ١١١١) وأحرقتها[٤٩] .

يقول مؤرخ[٥٠] قريب من هذه المرحلة عن على بن يوسف بن تاشفين (١١٠٦/٥٠٠ ـ ١١٤٣/٥٣٧) « ولم يزل الفقهاء على ذلك ، وأمور المسلمين راجعة إليهم ، وأحكامهم ـ صغيرها وكبيرها ـ موقوفة عليهم طول مدته ، فعظم أمر الفقهاء ـ كما ذكرنا ـ وانصرفت وجوه الناس إليهم ، فكثرت لذلك أموالهم واتسعت مكاسبهم » .

---

(٤٨) الأمير عبد الله الزيرى : المصدر نفسه . ص ١٧٢ ـ ١٧٤ ، ابن الخطيب: المصدر نفسه ، ص ١٨٦ .

(٤٩) عبد الواحد المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب . تحقيق محمد سعيد العريان ، محمد العربى العلمى . القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرى ١٩٤٩ ، ص ١٧٣ .

(٥٠) المصدر نفسه . ص ١٧١ .

على أن هذه الثيوقراطية الظاهرة ، كانت تحجب وراءها قدراً كبيراً من الانحلال والترف ، أصاب المربطين ومهد لقيام الموحدين عليهم[٥١] .

عند انعكاس هذه الأوضاع على الأندلس ، تجمعت نذر الثورة التى اندلعت فى سنة ٥١٥ / ١١٢١ ، وقد أعلنها الأندلسيون « ذباً عن الحرم والدماء والأموال »[٥٢] .

نتساءل الآن وقد انتهت ممالك الطوائف .. ما الذى أسفرت عنه هذه النهاية ؟

النتيجة الأساسية أن الأندلس ـ ورغمًا عن موجات مد إسلامية تالية[٥٣] ـ لم يعد إلى الأبد لما كان عليه إبان الفترة الأموية ، وصار تابعًا للمغرب ، وتابعًا للمتغيرات السياسية بالمغرب ، وما حفلت به من تناقضات . ولم ينقطع الأندلسيون عن الثورة ضد المرابطين وضد الموحدين بعدهم ، ورفعت بعض هذه الثورات شعارات دينيةً متطرفة[٥٤] ، وفى الوقت نفسه فإن زعماء هذه الثورات كانوا يتصلون

---

(٥١) المصدر نفسه . ص ١٧٧ .

(٥٢) الحلل الموشية . ص ٧١ .

(٥٣) مثل معركة الأرك Alarcos ٥٩١ / ١١٩٤ وقد انتصر فيها المسلمون ـ أندلسيين وموحدين ـ انتصاراً يشبه انتصار الزلاقة .

(٥٤) مثل ثورة المريدين فى غربى الأندلس بزعامة أحمد بن قَسِّى ، ويصفه صاحب المعجب بالشعبذة والجراءة على الله سبحانه وتعالى . ص ٢١٢ .

بالعدو المتربص فى الشمال ، ويستعينون به على أعدائهم المغاربة ، بل ويستعينون به على بعضهم البعض [٥٥] ، وعندما تحرك ملك قشتالة لأخذ قرطبة فى سنة ٦٣٣ / ١٢٣٦ لم يتحرك ابن الأحمر [٥٦] لنجدتها ، والتزم بولائه للملك النصرانى [٥٧] .

وإذا كان ابن الأحمر قد نجح فى تأسيس مملكة صغيرة فى غرناطة، إمتد بها العمر إلى ما يزيد عن قرنين ونصف القرن ، فالسبب فى ذلك هو الإنقسام الذى حدث فى المعسكر النصرانى ، ولم يكن لفضيلة كامنة بهذه المملكة ، ولم تكن معاونة بنى مرين - سادة المغرب المعاصرين - بكافية لحمايتها ودفع الأذى عنها .

---

(٥٥) مثل محمد بن سعد بن مردنيش الثائر على الموحدين فى شرقى الأندلس .

(٥٦) محمد بن يوسف النصرى أول ملوك بنى الأحمر (٦٣٥ / ١٢٣٨ - ٦٧١ / ١٢٧٢).

(٥٧) محمد عبد الله عنان : المرجع نفسه . ع٣ ، ق٢ ، القاهرة ، الخانجى ١٩٦٤ . ص ٤٢٣ - ٤٢٤ .

الفصل السادس

البحريون الأندلسيون
والوجود الإسلامى فى إقليم پروڤانس
رؤيا جديدة

عندما نتطلع إلى خريطة قديمة أو حديثة للأندلس (أو إسبانيا) نجدها أشبه بجزيرة ، وهذا يعنى ـ من الناحية النظرية ـ حميمية العلاقة بينها وبين البحر .

فى الواقع التاريخى نشاهد هذه الحميمية على نحو واضح لدى الساحل الشرقى ، وهو الساحل الذى يربط إسبانيا بمركز المعمور فى العالم القديم ، أعنى البحر الأبيض المتوسط أو بحر الروم ، إذا شئنا أن نستخدم مصطلح العصر .

خلال القرن الثالث الهجرى ومطالع القرن الرابع تتواتر فى مصادرنا أخبار عن قوم يدعون بالبحريين ، كانوا يتخذون قواعد لهم على طول هذا الساحل من طرَّكونة Tarragona (ثم طُرطوشَة Tartosa) شمالاً حتى بَجَّانة Pechina جنوباً ، ورغماً عن تواتر هذه الأخبار ، إلا إنها غامضة بقدر ما هى متواترة ، وجملة ما نستخرجه منها ، أن هؤلاء القوم نشطوا فى التجارة عبر البحر ، كما نشطوا أيضًا فى الجهاد ، وكان هذا

---

* مقال نشر فى المجلة التاريخية المصرية المجلد ٣٨. ١٩٩١ ـ ١٩٩٥.

النشاط فى الحالين مستقلاً عن سياسة الدولة وإن لم يكن بالضرورة مناقضاً لها .

- 1 -

وتعبير بحريين تعبير فضفاض ، ليست له دلالة عرقية ، وليست له أيضاً دلالة إجتماعية ، وهو مشتق من مادة بحر فى المعجمات .

من هم إذن هؤلاء القوم وإلى أى عرق ينتمون .؟

فى حديثه عن مدينة بَجَّانة ـ ويصفها بأنها جمهورية بحرية ـ يذهب ليفى پروفنسال (ت ١٩٥٦م) [١] إلى أن أهلها فى معظمهم من أرومة إسبانية مولدين [٢] ومستعربين [٣] . أو إنهم جميعهم مولدون ومستعربون ، يتحدثون بلهجة رومانثية . ويدلل على ذلك بأنهم أقاموا لدى أحد أبواب المدينة تمثالاً للعذراء [٤] ، كما ابتنوا كنيسة.

---

(1) Histoire de l'Espagne Musulmane . Paris, Leiden, 1950 Tome I. pp. 349, 352, Tome 11 pp. 155. Véase, Instituciones y Vida Social é Intelectual, en Historia de España, dirigada por Menéndez Pidal, tomo v p. 62.

(٢) Muladiés وهم المسلمون الأندلسيون من أصل إسبانى نصرانى.

(٣) Mozárabes وهم النصارى الأندلسيون ويعرفون أيضاً بالعجم والمعاهدين .

(٤) راجع : ابن عذارى : البيان المغرب . تحقيق ليفى پروفنسال . بيروت ، دار الثقافة ١٩٦٧ . ج ٣ ص ١٤ ، الحميرى : الروض المعطار . تحقيق إحسان عباس بيروت ، مكتبة لبنان ، ١٩٨٤. ص ٧٩ ـ ٨٠ .

نذهب إلى إن مايذهب إليه المستشرق الكبير فيه قدر من التعسف، فهو لاينوه الى مصدر بعينه يستند اليه بشأن نصرانية بعض هؤلاء البحريين، ثم إن التمثال الذى يستشهد به ، أقامه أهل بجانة محاكاةً لمثيل له بقرطبة ، وكان هؤلاء يعنيهم أن تكون مدينتهم أشبه بالحضرة، ولم يكن يعنيهم ما لهذا التمثال من دلالة دينية [٥] ، أما عن الكنيسة فلدينا أخبار عن واحدة أقيمت فى موضع بجانة ، وتعود فى تاريخها إلى عهد قديم [٦] .

الأكثر من هذا فإن أسماء البحريين التى تناهت إلينا تشى ـ على نحو عام ـ بأنها إسلامية ، وإن لم تكن بالضرورة عربية .

مع هذا لانستبعد وجوداً محدوداً لمستعربين ، دخلوا فى جملة هؤلاء البحريين ، تحفزهم المغامرة والسعى الى المغنم .

---

(٥) السيد عدالعزيز سالم : تاريخ مدينة ألمرية الإسلامية . الإسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ١٩٨٤. ص ٢٣ ـ ٢٤ ، وانظر أيضا أحمد مختار العبادى: تاريخ البحرية الإسلامية . الإسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ١٩٨٢ . ج ٢ ص ١٦٩ ـ١٧٠ . وليفى پروڤنسال يناقض نفسه فيقرر فى موضع آخر أن هذا التمثال أقيم على سبيل المحاكاة . الإسلام فى المغرب والأندلس ترجمة سالم وحلمى . الإسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٩٠ . ص ٦١ .

(٦) يذكر سيمونيت Simonet إنه بين ثمان وعشرين أسقفية بالأندلس ، كانت توجد أسقفية فى أرشى Urci (بجانة القديمة) كانت تابعةً لمطرانية طليطلة ، Historia de los Mozárabes, Madrid, 1897-1903 pp. 122, 810 .

إذا كان هؤلاء البحريون ـ على نحو عام ـ مسلمين ، فإنه يترجح لدينا إن غالبهم من المُولّدين ، ففي حديثه عن مدينة بجانة وتأسيسها يصف الحِمْيَرى [٧] (ت . أواخر القرن الثامن الهجرى) هؤلاء البحريين بأنهم «قوم من أوباش الأندلس» اصطدموا بجذمي العرب ـ معاً ـ قيسيةً ويمنيةً .

نستطيع أن نستدل كذلك على هذه الأصول المولدية من أسماء العمال الذين انتخبهم أهل بجانة وهم أربعة [٨] ، لانعلم عن ثلاثة منهم انتماءً واضحاً عربياً ولا بربرياً ، وآخرهم ينتمى الى طئ وربما كان انتماء ولاء لاصليبة .

وفى حديث البكرى (ت ٤٨٧ هـ) [٩] عن مدينة تَنَس ـ وقد أسسها بحريون أندلسيون ـ يذكر ن بينهم الكرْكَرْنى [١٠] وأبا عايشة والصقر وصُهَيْب ، وهى أسماء فضلاً عن غرابتها ، فهى غير محددة النسب ، وكان أهل الاندلس فى هذا العصر ـ عرباً ثم بربر ـ حريصين على تحديد أنسابهم [١١] .

---

(٧) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(٨) ويأتى الحديث عنهم بعد .

(٩) المغرب . الجزائر ،، ١٨٥٧م . تحقيق دى سلان ص ٦١ .

(١٠) أو الكرْكَدَن كما فى معجم البلدان . بيروت ، دار إحياء التراث العربى ، ١٩٧٩ . ح٢ ص ٤٨ .

(١١) ويذكر ابن الفرضِي (ت ٤٠٣هـ) من العلماء الذين ينتمون إلى بجانة عبدالله المعروف بالعطيطر وعبدالملك بن ساخنخ وهيتون بن حمود الوراق . تاريخ علماء الأندلس . القاهرة الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦ . ج١ ص ٢٢٩ تر ٦٩٤ ، ص ٢٧٤ تر ٨٢١، ج ٢ ص ١٧٥ تر ١٥٤٧ .

- 2 -

فى سنة ١٤٢ / ٧٥٩ استولى الفرنجة على أربونة Narbonne ، كبرى مدن سبتيمانيا Septimania (١٢) وهبط خط الحـدود مع الأندلس إلى جبـال البـرتات ، وفى سنة ١٨٥/ ٨٠١ اسـتولوا على برشلونة Barcelona ، ونشأ ما يعرف بالثغر الإسبانى La Marca Hispánica . وعاود هذا الخط هبوطه ليصل إلى قريب من نهـر إبرُه Ebro .

على أن الفرنجة من أجل أن يحكموا سيطرتهم على تخومهم مع المسلمين فى الأندلس ، فإنهم لم يلبثوا أن جعلوا من الثغر الإسبانى وسبتيمانيا ثغراً واحداً ، دعى بالثغر القوطى El Marquesado de Gocia ، وظل هذا الثغر قائماً حتى سنة ٨٦٥م ، حين انفصلت سبتيمانيا عن الثغر الإسبانى (١٣) ، إبان الفوضى العامة التى عمت بلاد الفرنجة فى أواخر عصر الدولة الكارولنجية .

لم يقف هذا التوسع لدولة الفرنجة فى الأراضى الإسبانية حائلاً دون غزوات ـ أو صوائف بمصطلح العصر ـ كان ينهض بها جيش الدولة

---

(١٢) أى أرض المدن السبع وقصبتها أربونة ، وكانت جزءاً من مملكة القوط فى إسبانيا ، وقد فتحها المسلمون بعد سنوات من فتحهم للأندلس ، ويدعى هذا الإقليم أيضاً بلانجدوك Languedoc .

(13) Aguado Bleye. Manual de Historia de España. Tomo 1. pp. 504 - 505.

من قُرْطُبَة ، أو ينهض بها بعض الأمراء المنتزين بالثغر ، وكانت هذه الغزوات تصل فى بعض الأحيان إلى صميم الأراضى الفرنجية ، لكنها لم تسفر عن وجود واضح ومستمر للمسلمين عبر البرتات ، وكان الغزاة يكتفون بضربات سريعة ـ وربما مؤثرة ـ ثم يعودون أدراجهم إلى الأندلس (١٤) .

صاحب هذا الجهاد البرى جهاد آخر بحرى ، قام عليه نفر من المجاهدين المسلمين ـ هم من ندعوهم بالبحريين ـ مستقلين عن الدولة. واتخذ بعضهم رباطات مجاورةً للسواحل ، يعيشون حياة الزهد . ولاتتوافر لدينا معلومات واضحة عن الفترة الباكرة لنشاط هؤلاء المجاهدين ، على أننا نعلم أنهم جعلوا مركز هذا النشاط مدينة طُرْطُوشَة، التى تقع قرب مصب نهر إبره ، وإشتهرت بمناعتها ، كما اشتهرت أيضاً بخشب الصنوبر الذى أفادت منه فى صناعة السفن (١٥) .

درج البحريون على أن يخرجوا من طرَّكُونة (ثم أحواز طرطوشة) ، ويجتاحون فى هجمات منظمة سواحل برشلونة وأنبوريش

---

(١٤) راجع على سبيل المثال : الكامل فى التاريخ لابن الأثير . بيروت ، دار صادر ، ١٩٨٢ . نشر تورنبرج ج ٦ ص ١٣٥ ، ١٤٩ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٤٠٠ ، ٤٠٦ ، ٥٢٩ ، ج ٧ ص ٥٧ ، ٨١ ، ٨٢ ، ١٠٩ ، ١١٠.

(١٥) إبن الخراط ، إختصار اقتباس الأنوار . مدريد ، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية ، ١٩٩٠ . تحقيق مولينا وبوسك بيلا . ص ١٤٩ ، الروض المعطار ص٧٩.

Ampurias [١٦] وفِرِنْجَة [١٧] ، كما ترددت غزواتهم على جزيرتى ميورقة ومنورقة ، وجاوزتها الى جزيرتى سِرْدانية وقُرْشقَة ، وكانت هذه الهجمات دافعاً لأن يلجأ سكان هذه الجزر إلى طلب الحماية من الإمبراطور شارلمان (٧٦٨ ـ ٨١٤) [١٨] .

ترتب على هذه الغزوات البحرية غزوات بحرية مضادة ، قام عليها قوامس الثغر الإسبانى ، خاصةً قوامس برشلونة وأنبوريش وروسيون Rosellón [١٩] ، وترتب عليها أيضا غزوات برية قاد إحداها لويس التقى ولد شارلمان فى سنة ١٩١ / ٨٠٧ ، فحاصر معقل هؤلاء البحريين فى طرطوشة ، لكن نجدةً بعث بها الحكم الربَّضى (١٨٠ / ٧٩٦ ـ ٢٠٦ / ٨٢٢) من قرطبة ، جعلت الفرنجة يرفعون الحصار عنها [٢٠] .

---

(١٦) إحدى كونتيات الثغر الإسبانى .

(17) Vallvé, Joaquín : EL Califato de Córdoba. Madrid, Editorial Mapfe, 1992 p.30.

(١٨) راجع فى هذا الشأن الفتوحات الإسلامية فى فرنسا وإيطاليا وسويسرا لرينو ترجمة اسماعيل العربى . بيروت ، دار الحداثة ، ١٩٨٤م . ص ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٣١ ، وانظر أيضا القوى البحرية والتجارية لأرشيبالد لويس ترجمة أحمد محمد عيسى . القاهرة ، مكتبة النهضة العربية د. ت . ص ١٦٣ ـ ١٦٤ .

(19) Lévi - Provençal : H.E.M. Tome 11p. 155.

(٢٠) إبن الأثير : المصدر نفسه ج ٦ ص ٢٠٢ ، النويرى : نهاية الأرب. القاهرة، الهيئة العامة للكتاب . ج٢٣ ، تحقيق أحمد كمال زكى . ص٣٦٨ .

ظلت طرطوشة المعقل الرئيسى لهؤلاء المجاهدين البحريين إلى أن انتقل هذا المعقل فى أخريات القرن الثالث الهجرى إلى قاصية الساحل جنوباً . ويذكر ابن حيان (ت ٤٦٩ هـ) [٢١] أن أهل طرطوشة بعثوا إلى الأمير عبدالله (٢٧٥ /٨٨٨ ـ ٣٠٠ / ٩١٢) فى أول ولايته ، يطلبون عاملاً من قبله عليهم ، وربما يعنى هذا إنهم كفوا بدرجة أو بأخرى عن نشاطهم البحرى ، ولجئوا الى الدولة للدفع عنهم .

لم يقف نشاط هؤلاء البحريين عند الشواطئ الفرنجية والثغر القوطى، فقد امتد إلى جهات أبعد فى بحر الروم .

فى سنة ٨١٨/٢٠٢ حدث الهيج المشهور بهيج الرَّبض Arrabal ، وقد قمعه الأمير الحكم (١٨٠/ ٧٩٦ ـ ٨٢٢/٢٠٦) بشدة ، وأمر بهدم هذا الربض ونفى الربضيين .

تذهب المصادر فى غالبها إلى أن بعضاً من هؤلاء المنفيين وعدتهم خمسة عشر ألفاً ، عبروا البحر إلى الإسكندرية فاستولوا عليها ، وظلوا بها عشر سنوات ، إلى أن أجلاهم عبدالله بن طاهر بن الحسين قائد الخليفة المأمون (٨١٣/١٩٨ ـ ٨٣٣/٢١٨) ، فانتقلوا منها إلى جزيرة إِقْرِيطِش (كريت) وافتتحوها ، وجعلوها قاعدةً لهجمات مدمرة على

---

(٢١)المقتبس ، السفر الثالث . تحقيق إسماعيل العربى . المغرب، دار الآفاق الجديدة . ١٩٩٠. ص ٧٥ .

شــواطئ الروم . إلى أن نجح هؤلاء فى اســتــرداد الجــزيرة فى العــام ٩٦١/٣٥٠ [٢٢] .

بيد أن للأستاذ سعد زغلول عبدالحميد [٢٣] رأياً له وجاهته . مفاده أن هؤلاء الاندلسيين ليست لهم علاقة بالربضيين ، إنما هم بحريون صناعتهم الغزو ، توافدوا إلى الإسكندرية فى نهاية الصيف ، وقد انتهوا من غزوهم ، فوافقوا البلاد المصرية وقد تنازعها عدد من الزعماء الطموحين ، استدعاهم واحد منهم ، وترتب على هذا الاستدعاء أن استولوا على المدينة .

---

(٢٢) راجع بخصوص هذه الأحداث تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطيه . تحقيق ابراهيم الإبيارى ، القاهرة ، دار الكتب الإسلامية. ١٩٨٢ ، ص ٦٨ - ٦٩، الحلة السيراء لابن الأبّار . تحقيق حسين مؤنس . القاهرة ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٦٣ . ج١ ص ٤٤ ـ ٤٥ تر ١ ، الكامل لابن الأثير ج٦ ص ٢٩٨ - ٣٠٠ ، البيان المغرب ص ٧٥ - ٧٦، المغرب لابن سعيد تحقيق شوقى ضيف . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٨ . ج ١ ص ٤٢ تر ١ ، النجوم الزاهرة لإبن تغرى بردى . القاهرة، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٦٤ -١٩٧٢ . ج٢ ص ١٥٨ ، وانظر أيضًا العرب والروم لڤازيلييف، ترجمة شعيرة . القاهرة ، دار الفكر العربى ، د. ت. ص ٥٦ ومابعدها .

(٢٣) الإسكندرية من الفتح الإسلامى الى بداية العصر الفاطمى (فى كتاب تاريخ الإسكندرية منذ أقدم العصور) ، الإسكندرية ١٩٦٣ . ص ٢٦٧ - ٢٦٩ ، وانظر أيضًا المغرب العربى للمؤلف نفسه ، الإسكندرية ، منشأة المعارف ١٩٧٩، - ١٩٩٥ ج ٢ ص ٢٢٨ ، تاريخ البحرية الإسلامية للعبادى ج٢ ص ٦٧ - ٧٥ .

يســـتند المؤرخ الفـــاضل فى رأيه هذا الى الكِنْدى (ت ٣٥٠هـ)[٢٤] وهو مصدر متقدم ، فلا يرد لديه خبر عن ربضية هؤلاء ولا عن نفيهم ، ويؤكد أنهم غزاة بحر ، وفدوا إلى الإسكندرية ليبتاعوا مايصلحهم ، ويحدد تاريخ وفادتهم بسنة ١٩٩هـ ، أى قبل أحداث الربض بثلاث سنوات ، والأهم تحديده لمراكبهم بأربعين مركباً ، وأربعون مركباً لاتصلح لحمل خمسة عشر ألفاً المقول إنهم ربضيون .

فى العام الذى غزا فيه هؤلاء البحريون جزيرة إقريطش ، فإن بحريين آخرين شاركوا فى غزو جزيرة صقلية .

والمعروف أن فتح هذه الجزيرة بدأ فى العام ٨٢٧/٢١٢ ، حين غادر المسلمون رباط سوسة بإفريقية ، يتودهم القاضى الشهير أسد بن الفرات ، وبعد أن استولوا على مازَر حاصروا سَرقوسة ، لكن الحصار تعثر بسبب الوباء الذى هلك بسببه عدد كبير من المسلمين بينهم القاضى نفسه ، وأتى أسطول من الروم ضيق الخناق عليهم . وبعد أن كانوا يحاصرون سرقوسة ، صاروا محاصرين فى ميناو ، وبدا الأمل فى نجاح فتحهم يتبدد[٢٥] .

---

(٢٤) الولاة والقضاة . تحقيق رفن كَست ليدن ، بريل ، ١٩١٢ ص ١٥٨ .

(٢٥) البيان المغرب ج ١ ص ١٠٢ ـ ١٠٣ ، نهاية الأرب للنويرى ج ٢٤ تحقيق حسين نصار ص ٣٥٧ - ٣٥٨ . وانظر أيضاً المغرب العربى لسعد زغلول عبدالحميد ج ٢ ص ٢١٦ - ٢٣١ ، تاريخ البحرية للعبادى ج ٢ ص ١١٢ .

كـــان من حظ هؤلاء المسلمين أن وافـتــهـم فى هذه الأثناء (٨٣٠/٢١٥) ثلاثمائة سفينة من سفن البحريين الأندلسيين ، توافت دفعةً واحدةً أو دفعتين يقودها أصبغ بن وكيل ويعرف بفرغلوش [٢٦] ونجح المسلمون المتحدون ـ أندلسيين وأفارقةً ـ فى رفع الحصار عنهم وفى فتح بَلِرْم Palermo [٢٧] .

على أنه لم يلبث أن دب الخلاف بين الفريقين من المسلمين ، وأفضى إلى أن فارق البحريون الأندلسيون الجزيرة ، وقفلوا الى بلادهم، بعد مشاركة لهم فى الفتح دامت قرابة عامين [٢٨] .

إمتد نشاط البحريين الأندلسيين إلى ماجاورهم من العدوة المغربية، بخاصة المغرب الأوسط ، حيث تحكم الأسرة الرستمية فى تاهرْت ، وكانت تربطها بالأسرة الأموية فى قرطبة وشائج قوية [٢٩] ، بل إن بعضاً

(٢٦) يدعوه البكرى بعمروس ، جغرافية الأندلس وأوربا ، تحقيق الحجى ، بيروت ، دار الإرشاد ، ١٩٦٨ . ص ٢٢١ .

(٢٧) الكامل لابن الأثير ج٦ ص ٣٣٧ ، نهاية الأرب ج ٢٤ ص ٣٥٩ ، تاريخ ابن خلدون ، بيروت ، مؤسسة جمال للطباعة والنشر ، ١٩٧٩ ، (عن طبعة بولاق) ج ٤ ص ١٩٩.

(٢٨) البيان المغرب ج ١ ص ١٠٤ ، الروض المعطار ص ٤٢٩ ، وانظر أيضًا سعد زغلول عبدالحميد المرجع نفسه ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣ .

(٢٩) بينها بطبيعة الحال اتحاد المصلحة ضد الأغالبه أتباع العباسيين بإفريقيه ، وجدير بالذكر إنه عندما ابتنى هؤلاء مدينة قرب تاهرت فى سنة ٢٢٧هـ ودعوها العباسية ، فإن الإمام أفلح بن عبدالوهاب بن عبدالرحمن بن رستم=

من الرستميين انتقلوا إلى الأندلس ، وصاروا فى ولاء بنى أمية وولوا الحجابة والقيادة والوزارة (٣٠) .

قبل أن ينتهى القرن الثانى الهجرى بدأ البحريون الأندلسيون يختلفون الى الشواطئ المغربية ، بهدف التجارة وليس الجهاد ، وأعانهم على ذلك طبيعة النظام الإباضى ، الذى كان لايقبل بجباية الضرائب على المتاجر باعتبارها مغارم (٣١) ، فصار هؤلاء يبحرون الى المغرب فى الخريف ، يمضون الشتاء يتاجرون مع البربر ، ثم يعودون بمتاجرهم فى الربيع ، وكان يمثلهم فى كل ميناء عريف منهم ، ينظم علاقاتهم بالقبائل البربرية ، مثلما كان قناصل المدن الإيطالية يفعلون (٣٢) .

= (١٩٨/ ٨١٤ - ٨٦١/٢٤٧) أحرقها ، وكتب إلى عبدالرحمن الأوسط (٨٢٢/٢٠٦-٨٥٧/٢٣٨) يتقرب اليه بذلك . فكافأه بمائة ألف درهم . تاريخ ابن خلدون ج٤ ص ٢٠٠ ، وكان محمد بن أفلح (٨٧٣/٢٦٠ - ٨٩٤/٢٨١) لايقدم ولايؤخر إلا عن رأى الأمير محمد ابن عبدالرحمن الأوسط (٨٥٧/٢٣٨ ـ ٨٨٦/٢٧٣) وأمره. البيان المغرب ج٢ ، ص ٢٠٨.

(٣٠) الحلة السيراء ج٢ ، ص ٣٧٢ تر ٢٠٢ المغرب لابن سعيد ج١ ص ٤٨ تر٢.

(٣١) سعد زغلول عبدالحميد المرجع نفسه ج ٢ ص ٣١١ .

(32) Lévi- Provençal : op cit. Tome 1. p 349.

وانظر أيضاً تاريخ المسلمين فى البحر المتوسط لمؤنس ص ٩٧ .

لم يلبث أن انتقل هؤلاء البحريون فى مرحلة تالية الى تأسيس مدن خاصة بهم على الشاطئ المغربى ، أهمها مدينة تَنَس الحديثة ، وذلك فى سنة ٢٦٢/٨٧٥ ـ ٨٧٦ ، ويذكر أن انشاءهم هذه المدينة جاء استجابةً لطلب البربر أنفسهم (٣٣) وتتابع إنشاء هذه المدن ومن بينها مدينة وهران فى سنة ٢٩٠ (٣٤).

كما لما أظهره هؤلاء البحريون من نشاط جم فى بحر الروم أثره فى أن المجوس (٣٥) فى غزواتهم التى تكررت على بلاد الأندلس ، كانوا غالباً ما يحرصون على أن يجتنبوا مياهها الشرقية ، ويقصرون هجماتهم على مياهها الغربية ، كما كان له أثره فى أن الدولة الأندلسية استعانت بالبحريين الأندلسيين فى تنظيم أسطولها وإعادة بنائه، فى أعقاب هجمة المجوس الأولى فى سنة ٢٢٩ ـ ٢٣٠ /٨٤٣(٣٦)

---

(٣٣) المغرب للبكرى ص ٦١ وانظر ايضاً معجم البلدان ج ٢ ص ٤٨ .

(٣٤) المغرب للبكرى ص ٧٠ ، وانظر أيضًا : كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار لمجهول . تحقيق سعد زغلول عبدالحميد الإسكندرية ، كلية الآداب ، ١٩٥٨م ، ص ١٣٣ .

(٣٥) أو الأردمانيون وهم الفايكنج Wikingos غزاة الشمال الذين روعوا القارة الأوربية بأسرها فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين .

(٣٦) عن هذه الهجمة راجع : تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية القاهرة ، دار الكتب الاسلامية ١٩٨٢ . ص ٧٨ ـ ٨٢ ، نصوص عن الأندلس للعذرى . تحقيق عبدالعزيز الاهوانى . مدريد ، معهد الدراسات الإسلامية ، ١٩٦٥. ص ٩٨ ـ ١٠٠ ، نهاية الأرب ج ٢٣ ص ٢٨٣ ، ٢٨٤ .

يقـول ابن القـوطيـة (ت ٣٦٧ هـ) [٣٧] «واستعد الأمير عبدالرحمن بن الحكم (٢٠٦ /٨٢٢ ـ ٢٣٨/٨٥٢) فأمر بإقامة دار صناعة بإشبيلية Sevilla وانشاء المراكب ، واستعد برجال البحر من سواحل الأندلس فألحقهم ووسع عليهم» .

أسفر التعاون بين الدولة الأندلسية والبحريين الأندلسيين عن فتح المسلمين جـزيرتى مـيـورقـة ومنورقـه ـ الفـتح الأول ـ فى سنة ٢٣٤/٨٤٨ـ ٨٤٩ [٣٨] وتصديهم لهجمة المجوس الثانية فى سنة ٢٤٥/٨٥٩ [٣٩] .

-3-

فى سنة لانستطيع أن نحددها ، لكنها تقع حول منتصف القرن الثالث الهجرى ، حط نفر مـن البحريين الأندلسيين رحالهم لدى مـرسى، يقع على خليج قـرطاجنة الحلفـاء ، يدعى أشكويرش Escombreras [٤٠] حيث استقرت بهم الحال سنوات ، انتقلوا بعدها

---

(٣٧) تاريخه ص ٨٢ – ٨٣ .

(٣٨) راجع ماورد عن فتحها فى المقتبس لابن حيان : السفر الثانى . تحقيق محمود على مكى بيروت ، دار الكتاب العربى ، ١٩٧٣ ، ص ٢–٤ ، البيان المغرب ج٢ ص ٨٩ .

(٣٩) عن هذه الهجمة راجع تاريخ افتتاح الأندلس ص ٨٣ ، المقتبس ، السفر الثانى ص ٣٠٧ ومابعدها ، العذرى : المصدر نفسه ص ١١٨ ـ ١١٩ ، نهاية الأرب ج ٢٣ ص ٣٨٨ ـ ٣٨٩ .

(٤٠) المغرب للبكرى ص ٨١ وانظر ايضاً ألمرية لسالم ص ٣٣ .

على طول الساحل جنوباً ، ولدى قريب من مصب نهر أَنْدَرَش Río de Andarax ، وبعد استئذان الأمير محمد ، أسسوا مدينةً دعيت ببجانة[٤١] .

امتثل البحريون فى بنائهم هذه المدينة سنة ٢٧١/٨٨٤ ـ ٨٨٥ ببنية قرطبة ، ولما فرغوا من بنائها جعلوها قاعدةً لنشاطهم « وصارت الميرة تجلب إليها من العدوة وضروب المرافق والتجارات»[٤٢] ، وعندما ولى الأمير عبدالله فى سنة ٢٧٥/٨٨٨ . طلبوا منه إقرار واليهم عليهم، وإباحتهم البناء حول قصبتهم ، فلما أجابهم ابتنوا عشرين حصناً [٤٣] .

لم يكن هؤلاء البحريون هم أول من توافد الى هذه المنطقة من المسلمين ، فقد سبقهم إليها قوم من غسان [٤٤] ، استوطنوا قرب موقع مدينة بجانة ، وعهد اليهم بنو أمية بحراسة الشاطئ من غارات القراصنة وخاصةً المجوس ، وقد أقام هؤلاء الغسانيون حيث أقاموا عدة رباطات ،

---

(٤١) الرُشاطى : إقتباس الأنوار . تحيق مولينا وبوسك بيلا، مدريد ، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية ، ١٩٩٠م ص ٢٩ .

(٤٢) الروض المعطار ص ٨٠ .

(٤٣) المقتبس لابن حيان . السفر الثالث ص ٧٥ ، ٧٦ .

(٤٤) يذكر صاحب الروض المعطار أنهم من قضاعة . ص ٧٩ ، وانظر أيضًا المرية لسالم ص ٢١ .

أهمها رباط القابطة (٤٥) كما أقاموا محرساً أو مرأىً عند مصب نهر أندرش يدعى ألْمرِّية Almería (٤٦) .

كا الموضع الذى استقر به هؤلاء اليمانية يدعى بأُرْش اليمن ، أى عطيتهم أو نحلتهم (٤٧) ، على أن لايبعد أن يكون هذا الاسم مشتقاً

---

(٤٥) أوقابطة ابن اسود نسبةً إلى أحد زعماء الغسانيين ، نزهة المشتاق . للإدريسى تحقيق تشيرولى وآخرين . ناپولى - روما ١٩٧٠ - ١٩٨٤ . ج٥ ص ٥٥٩ وتدعى الآن Cabo de Gata : : Véase Lévi - Provençal Instituciones y Vida Social é Intelectual. P. 64 .

(٤٦) العذرى : المصدر نفسه ص ٨٦ ، الروض المعطار ص ٥٣٧ ، وانظر أيضًا أطلس تاريخ الإسلام لمؤنس ، القاهرة ، مكتبة الزهراء ، ١٩٨٦م ص ٢٨٩ ، ألمرية لسالم ص ١٩ ، ٢١ ، ٢٢ .

(٤٧) إقتباس الأنوار ص ٢٩ ، وانظر أيضاً الروض المعطار ص ٧٩ ، ومن معانى مادة أرش فى المعجمات ، الرشوة والدية ، العين للخليل ، تحقيق مهدى المخزومى ، إبراهيم السامرائى ، بيروت دارالهلال ، د.ت . ج٦ ص١٥ ، تهذيب اللغة للأزهرى ، تحقيق عبدالسلام هارون ، القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٤م ج ١١ ص ٤٠٦ ، لسان العرب لابن منظور تحقيق عبدالله الكبير وآخرين القاهرة ، دار المعارف ١٩٨١م. ج١ ص ٦٠ - ٦١ ، القاموس المحيط للفيروز ابادى . مصر ، مصطفى البابى الحلبى ١٩٥٢م . ج١ ص ٢٥٩ ، على أن ابن سيده (ت ٤٥٨هـ) وهو أندلسى يضيف إلى هذين المعنيين معنى آخر هو العطية . المخصص . بولاق، ١٣١٩هـ ، ج٣ ص ٧٧ وفى شمالى المغرب يقولون أَرْ (بصيغة الأمر فقط) أعطنى ، عبدالمنعم سيد عبدالعال : معجم شمال المغرب : تطوان وما حولها . القاهرة دار الكاتب العربى، ١٩٦٧ . ص ١٧ . ويذكر ابن الخطيب (ت ٧٧٦هـ) من أقاليم غرناطة عدة أروش ، منها أرش قيس وأرش اليمن وفيه مدينة ألمرية اليمانيه وأرش اليمانية وأرش اليمنيين وأرش اليمانى . اللمحة البدرية . تصحيح محب الدين الخطيب مصر . المطبعة السلفية ، ١٣٤٧هـ . ص ١٨ .

من Urci ، وهو الإسم القديم [٤٨] .

سعى البحريون إلى إرضاء جيرانهم من العرب اليمانية ، وصاروا يهادونهم بما توافر لديهم من تحف أتوا بها من المشرق [٤٩] ، على أنهم عندما تمكنوا من بلدهم . مالوا إلى الإستطالة عليهم ، فقصدهم سوار ابن حمدون المحاربى أمير العرب بكورة إلبيرة Elvira فى جموع القيسية ، وهرع عبدالرازق بن عيسى عامل بجانة إلى إصلاح ما بين قومه وبين الغسانيين ، فخرجت جماعة من وجوههم - أى من وجوه الغسانيين - وشفعوا لأهل بجانة عند سوار ، حتى انفصل عنهم [٥٠] .

عاود البحريون الاستطالة على الغسانيين ، وعاود هؤلاء الاستمداد بعرب إلبيرة وزعيمهم الجديد سعيد بن جودى السعدى ، فحاربهم أياماً إلى أن أتى شُنْيَر قومس أنبوريش [٥١] بخمسة عشر مركباً ، أرفات بساحل ألمرية ، وشن الغاره عليها ، فانصرف البحريون يدافعون شنيير الى أن عاد من حيث أتى [٥٢] .

---

(٤٨) ألمرية لسالم ١٩ - ٢٠ .

(٤٩) الروض المعطار ص ٨٠ .

(٥٠) إبن حيان المصدر نفسه السفر الثالث ص ١١٠ - ١١١ .

(٥١) هوSunyer أو Suniario ويذهب سيمونيت وأجوادو بلايه إلى أن السبب فى غزوتته هذه نجدته لمستعربى بجانة وألمرية من عدوان سعيد بن جودى (كذا) Véase. Simonet. Op. Cit p. 548, Aguado Bleye. Op. Cit. p. 507.

(٥٢) إبن حيان : المصدر نفسه ، السفر الثالث . ص ١١١ - ١١٢ .

بعد أن دافع البحريون شنيير عاودوا مدافعة ابن جودى ، وكان قد حسب أن مدداً أتاهم فرحل عنهم [٥٣] .

ازدهرت بجانة ازدهاراً واسعاً . وخاصةً فى عهد أول عمالها وهو عبدالرازق بن عيسى .

يقول الرازى [٥٤] ، «وكان عامل السلطان يومئذ على هؤلاء البحريين رجل منهم اسمه عبدالرازق بن عيسى ، قد طارله الإسم بحسن السيرة وجودة الضبط والحزامة ، مع الغلظة والدعارة والمبالغة فى عقوبة من ظفر به منهم ، حتى أن المسافرين عندهم كانوا يضعون أمتعهم ورحالهم بالأسواق والشوارع مطروحةً بلا حارس ، فلا يكاد يضيع شئ منها» .

ويتضح لدينا أن أهل بجانة درجوا على اختيار حكامهم ، فبعد وفاة عبدالرازق هذا قدموا قاسم بن على ، وبعد وفاته فى سنة ٣٠٣ هـ قدموا مسعوداً أخاه وأقره الناصر (٩١٢/٣٠٠ـ ٩٦١/٣٥٠) الى أن أساء السيرة فعزله أهل بجانة ، وقدموا عليهم عبد الرحمن بن مطرف ابن عبد الرحمن بن أصبغ الطائى [٥٥] فظل يحكم المدينة حتى

---

(٥٣) المصدر السابق ص ١١٢ .

(٥٤) المصدر السابق ص ١١٠ـ ١١١ وانظر أيضا الروض المعطار ص ٨٠ .

(٥٥) المقتبس لابن حيان ص ١١١ ـ ١١٢ وانظر ايضاً الروض المعطار ص٨٠.

سنة ٣١٠هـ ، حين أنهى الناصر الاستقلال الذى كانت تتمتع به بجانة[٥٦] .

ورغمًا عن ذهاب هذه الجمهورية إلا أن الدولة أفادت من أهلها ، عندما صارت لها قوة بحرية ضاربة ، فشاركوا فى غزواتها [٥٧] التى طالت العدوتين المغربية والفرنجية .

على أن نجم بجانة بدأ فى الأفول لصالح المرية ، وهى من بناتها ، خصوصاً عندما أعاد الناصر بناءها فى سنة ٩٥٥/٣٤٤ ، وأنشأ لها سوراً ودار صناعة [٥٨] وأضحت القاعدة الأساسية لأسطول الدولة ، ولم يلبث أهل بجانة أن انتقلوا إليها فى سنة ٤٠٢ هـ [٥٩] ، ولم يتبق منها فى زمن الإدريسى (ت ٥٦٠هـ) ، سوى آثار بنيانها ومسجدها الجامع[٦٠] .

---

(٥٦) المقتبس لابن حيان السفر الخامس . تحقيق شالميتا وآخرين . مدريد . المعهد الإسبانى العربى للثقافة ، الرباط ، كلية الآداب ١٩٧٩م ص ١٨١ .
(٥٧) المصدر نفسه ص ٣١٣ .
(٥٨) العذرى : المصدر نفسه ص ٨٦ إقتباس الأنوار ص ٥٩ وانظر ايضاً الروض المعطار ص ٥٣٧ .
(٥٩) العذرى : المصدر نفسه ص ٨٢ .
(٦٠) نزهة المشتاق ج ٥ ص ٥٦٦ .

- 4 -

إلى الجنوب من بلاد برْغونية Bourgogne [٦١] . يقع إقليم پروڤانس Provence ويمتد من سفوح جبال الألب شمالاً حتى بحر الروم جنوباً ، وقد عرف الشريف الإدريسى [٦٢] هذا الإقليم ودعاه بربنصة ، كما عرفه العرب فى غزواتهم الأولى بالأرض الكبيرة [٦٣] .

درج المسلمون فى غزواتهم هذه على أن ينفذوا إلى الأرض الكبيرة عن طريق ممرات البرتات الشرقية ، وينتهون منها إلى إقليم سپتيمانيا ، وقد يصعدون شمالاً مع نهر الرون ، أو ينحرفون غرباً الى ولاية أقْطانية Aquitania .

على أننا نشاهد المسلمين فى بعض هذه الغزوات ينساحون شرقاً ، ويطرقون أبواب پروڤانس ، ويزعم رينو Reinaud [٦٤] أن عقبة بن

---

(٦١) كما يدعوها الإدريسى فى نزهة المشتاق ج ٧ ص ٧٣٨ وهى برجنديا Burgundia .

(٦٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(٦٣) غالباً ما كان يقصد بهذا التعبير مانقصده اليوم بفرنسا . طبقات الأمم لصاعد ص ٩٩ ، الإحاطة لابن الخطيب تحقيق محمد عبدالله عنان القاهرة، الخانجى ، ١٩٧٣ ـ ١٩٧٧ ، ج ٢ ص ٤٤ ، نفح الطيب للمقرى . تحقيق احسان بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٨م ، ج١ ص ١٤٥ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧ ، وأحياناً كان يقصد به مانقصده اليوم بإيطاليا . تاريخ ابن الأثير ج ٦ ص ٥٢٠ ، البيان المغرب ج١ ص١١٥ ـ١٢٠ ، نهاية الأرب ج٢٤ ص ٣٦٤.

(٦٤) المرجع نفسه ص ٧٦ ـ ٧٧ .

الحجاج السلولى والى الأندلس (١١٦/٧٣٤ ـ ١٢٣/٧٤١) احتل هذا الإقليم ، وتعداه الى جبال دوفينى Dauphiné وبيمونت Piémont .

ترتب على استيلاء الفرنجة على أربونه وضياع سبتيمانيا ، أن أغلق الطريق البرى الى پروڤانس ، ولم يعد للمسلمين من سبيل إليها سوى طريق البحر (٦٥) ، وقد تكررت غزواتهم البحرية هذه فى السنوات التالية لموت شارلمان ، ووصلوا فى بعضها الى مقربة من مدينة جنوة فى الشرق والى مدينة آرل Arles (٦٦) فى الغرب (٦٧) .

فى سنة ٨٤٣ عقدت اتفاقية ڤردن Verdun ، وبموجبها جرى تقسيم الإمبراطورية الكارولنجية الى ثلاث ممالك ، وصارت پروڤانس داخلةً فى حدود المملكة الوسطى ـ مملكة لوثار Lothar ـ وآلت فى سنة ٨٥٥م الى ولده شارل المعروف بالپروڤانسى ، وعند وفاة شارل هذا فى سنة ٨٦٣م وضع شارل الأصلع ملك فرنسا يديه على پروڤانس ، وعهد بإدارتها فى سنة ٨٧٠م إلى نبيل فرنجى يدعى بوسو Boso ، فاستولى على كونتيتى ڤيين Vienne وليون Lyone ، وأعلن نفسه ملكاً فى

---

(٦٥) ويزعم رينو أيضاً أن عبيد الله البلنسى غزا بجيش الدولة پروڤانس فى سنة ٨٣٨م فاجتاحها . ص ١٣٧ . ولانجد خبراً عن هذه الغزوة فى أى من مصادرنا.

(٦٦) وتدعى عند المسلمين أرلطة ، تقويم قرطبة لعريب بن سعد. تحقيق دوزى ص ١٢٩ وأرلش . نزهة المشتاق ج ٧ ص ٧٤٩ .

(٦٧) رينو المرجع نفسه ص ١٣٨ ومابعدها . أرشيبا لدلويس : المرجع نفسه ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠.

سنة ٨٧٩ ، لكن الحال لم تستقر به سوى ثلاث سنوات ، فقد تحالف أبناء البيت الكارولنجي ضده ، وطردوه من ڤيين فى سنة ٨٨٢ ، ثم مات بعد خمس سنوات (٦٨) .

فى سنة ٨٩٠م استطاع لويس ولدبوسو أن يستعيد ملك أبيه ، وتم تتويجه فى ڤالنس Valence ، ويبدو أن كان له طموح أكبر من طموح أبيه ، وقد دفعه هذا الطموح لأن يتوجه إلى إيطاليا فى سنة ٩٠٠م ، وينازع ملكها برنجار الأول Berengar (٨٨٨ - ٩٢٤م) ودخل پاڤيا Pavia بالفعل وتوج ملكاً على إيطاليا ، ثم توج إمبراطوراً فى روما . لكن برنجار لم يستسلم بسهولة ، وفى سنة ٩٠٥م انتصر على لويس وسمل عينيه ، وأعاده إلى پروڤانس حيث عاش فى قصرة بڤيين بقية عمره ، وترك أمور مملكته إلى ابن عمه هيو Hugh قومس آرل (٦٩) .

فى الوقت الذى كانت تشهد پروڤانس ، نزاعات على السلطة بها، فإنها تعرضت ـ شأنها شأن أقطار أوروبية أخرى ـ لهجمات المجوس ، فبعد غزوتهم للشاطئ الأندلسى فى سنة ٢٤٥ / ٨٥٩ ، ساروا بسفنهم إلى مياه بحر الروم الغربية . وحطوا الرحال عند روسيون، ثم تقدموا عبر نهر الرون إلى آرل وڤالنس ، واقاموا مدية فى جزيرة

---

(68) Cambridge Medieval History. Cambridge, 1981. Vol 111 pp. 34,41,57,137.138.

(69) Ibid P. 138.

كامارج Camargue عند دلتا نهر الرون [٧٠] .

في سنة ٨٦٩م أقدم البحريون الأندلسيون على مغامرة شبيهة بهذه المغامرة ، ونزلوا بالجزيرة التي سبق أن نزل بها المجوس ، واتخذوا منها قاعدةً للتوغل في وادي الرون ، وتقدموا الى آرل وأسروا أسقفها ، وحصلوا على فديته رغماً عن موته في أسرهم [٧١] .

كانت هذه المغامرة الجريئة مقدمةً لمغامرة أخرى أكثر جراءةً ، وقعت بعد عشرين سنةً وأسفرت عن قيام دولة إسلامية (أو إذا شئنا دويلة) قدر لها البقاء نيفاً وثمانين سنة .

- 5 -

حول سنة ٨٩٠م دفعت ريح غير مواتية مركباً ، كان يستقله نحو عشرين ملاحاً أندلسياً إلى خليج سانت تروبيز Saint - Tropez ، فهبطوا إلى البر ، وعندما دخل الليل ، تسللوا إلى قصر الحاكم واستولوا عليه ، واتخذوا من الجبل المجاور ـ وقد دعي فيما بعد بجبل المسلمين ـ درءاً لهم ، وبعد أن شنوا هجمات على القرى المجاورة ، بعثوا يستمدون إخوانهم في الأندلس ، فأتاهم نحو مائة منهم ، وشرع الجميع في ابتناء

---

(70) Ibid. p.320.

(71) Lévi-Provençal op. cit, tome 11 p. 157.

وانظر أيضًا رينو : المرجع نفسه ص ١٤٧ - ١٤٨ ، أرشيبالد لويس ، المرجع نفسه ص ٢٣٠.

حصن دعى فى الوثائق المعاصرة فراكسينيتوم Fraxinetum [٧٢] .

فى كتابه المكافأة Antapodosis يصف ليودپراند Liudprand الكريمونى (ت ٩٧٢م) وهو كاتب معاصر هذا الحصن فيقول[٧٣] .

«إن أحد جوانبه يشرف على البحر . أما سائر الجوانب فتحميها غابة كثيفة من أشجار الصبار ، وإذا جازف أحد بالدخول إلى هذا الشرك ، فسوف تعوقه الأشواك الملتفة ، وتصيبه بجراحات عميقة ، ويصعب عليه أن يتقدم إلى الداخل أو حتى أن يتراجع » .

كان إبتناء هذا الحصن دافعاً لأن تتوافد إليه أعداد أخرى من المسلمين ، انضموا إلى اخوانهم ووافتهم أمداد وميرة [٧٤] ، جعلتهم يمكنون لأنفسهم ، ويشيدون مجموعةً من الحصون ، على غرار حصنهم

---

(٧٢) نسبةً إلى شجر الدردار وهو باللاتينية Fraxinus وصار عند مستعربى الأندلس فراشنه وفى القشتالية القديمة Fràxino والإسبانية Fresno والپروفنسالية والفرنسية القديمة Fraisne والفرنسية Frêne والإيطالية Frassino
Véase. Simonet : Glosario. Madrid, 1888 . Segunda Parte. p. 232 ويذهب البحث الحديث إلى أن هذا الحصن يقوم مقامه الآن قرية تعرف بجارد فرينيه Garde - Freinet
Lévi Provençal : Op. cit Tome 11 p. 158.

(73) Antapodosis , in the works of Liudprand of Cremona. Trans by F.A. Wright, London, Routledge, 1950. p. 33 .

(74) Ibid & 34.

الأول ، وأفادوا من شغل لويس بن بوسو ملك پروڤانس بطموحاته فى إيطاليا ، كما أفادوا من النزاعات التى دارت بين نبلاء البلاد ، فأعانوا بعضهم ضد بعض ، ولم يلبث أن تكاثرت أعدادهم ، لبنائهم بالنساء اللاتى كن يقعن سبايا فى أيديهم ، وخلال سنوات قليلة صارت لهم السيادة الكاملة على پروڤانس ، بعد أن أسسوا «دولةً إسلاميةً واغلةً فى صميم الأراضى النصرانية» كما يصفها ليڤى پروڤنسال (٧٥) .

لم يكتف المسلمون بسيطرتهم على پروڤانس ، فقد تقدموا عبر ممرات الألب وسيطروا على قممها ، وقطعوا طرق المواصلات بين مايعرف الآن بفرنسا وإيطاليا وسويسرا واستولوا على عدة مدن فى هذه الأقطار ، وكثيراً ما كان الحاج إلى روما يقعون أسارى فى ايديهم ، ولايطلقونهم إلا بعد دفع فدية كبيرة (٧٦) .

ويصعب علينا أن نتتبع تفصيلات الوجود الإسلامى فى پروڤانس وما جاورها ، لاختلاط الحقيقة بالأسطورة ، وما كان يشوب الروايات النصرانية من مبالغات ، نلاحظها فى كتاب رينو عن غزوات العرب(٧٧) ، وتتردد فى هذه الروايات أخبار عن ذبح المسلمين للسكان

---

(75) Op. Cit, Tome 11p. 154.

(76) Antapodosis. pp. 90-91.

(٧٧) راجع القسم الثالث من كتابه ص ١٥٤ - ١٦٦ .

أو سلخهم أحياء ، وحرقهم للكنائس والأديرة ، واستيلائهم على الذخائر المخبوءة فيها .

وترتبط المقاومة النصرانية للغزاة المسلمين بشخصية هيو الذى آلت إليه أمور مملكة پروڤانس ، وكان قد سعى شأنه شأن قريبه لويس الأعمى ، لأن يصبح ملكاً على ايطاليا ، وتم تتويجه فى پاڤيا ، وانتهز المسلمون فرصة غيابه ، وازداد عيثهم فى الإقليم ، فأرسل الأهالى إلى هيو يطلبون عونه ، فاتفق مع صهره الإمبراطور البيزنطى (٧٨) ، وطبقًا لهذا الاتفاق قاد هيو جيشه فى سنة ٩٤٢م ، وحاصر فراكسينيتوم براً، بينما حاصرها الروم بحراً ، وصبر المسلمون على الحصار ، حتى اشتدت وطأته فشرعوا يغادرون حصنهم إلى الجبال المجاوره ، وكاد هيو ينتهى منهم ، لولا أنه علم بأن خصمه برنجار (الثانى) الذى ينازعه عرش إيطاليا عاد إلى منازعته ، فرفع الحصار عن الحصن وصالح المسلمين ،

---

(٧٨) هو الإمبراطور رومانوس الأول ليكاپينوس Romanus Lecapenus (٩١٩ - ٩٤٤) الوصى على الإمبراطور قسطنطين السابع پورفيروجنيتوس Constantinus Porphyrogenitus ٩١٣ - ٩٥٩م ، وقد تزوج رومانوس (الثانى) ولى عهد أبيه قسطنطين السابع من ابنة الملك هيو . راجع إدارة الإمبراطورية البيزنطيه لقسطنطين پورفيروجنيتوس . ترجمة محمود سعيد عمران . بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٨٠ ص ٩٨ وانظر ايضاً Antapodosis p. 89.

شريطة أن يعينوه ضد خصمه ، ويمنعوه من العبور إلى إيطاليا (٧٩) .

في الوقت نفسه ، وبينما هيو بسبيله لحصار المسلمين فى حصنهم، كان المجريون يعيشون فى إيطاليا وماجاورها ، ويذكر ليودبراند (٨٠) أن الملك صالحهم وأعطاهم أموالاً وأغراهم بالتوجه إلى إسبانيا ، وأصحبهم دليلاً يعرفهم الطريق إليها ، فسار بهم ثلاثة أيام فى مناطق جرداء حتى كادوا يهلكون ، وأخيرا قتلوا الدليل وعادوا من حيث أتوا.

لاندرى مدى صحة مايذكره ليودبراند ـ وهو كما قلنا معاصر لهذه الأحداث ـ لكننا إذا ربطنا بين روايته هذه وبين رواية أندلسية ـ ترد بعد ـ يتضح لنا إنهم توجهوا بالفعل إلى الأندلس ، وأغاروا على الثغر الأعلى ، وأثاروا الفزع حيث حلوا ، إلى أن رحلوا لأسباب تسكت عنها هذه الرواية .

بعد سنوات قليلة مات هيو ، ودخلت پروڤانس فى حوزة كونراد

---

(79) Antapodosis. pp. 186 - 187 .

وجدير بالذكر أن ليودبراند يحمل حملةً شديدةً على الملك هيو بسبب اتفاقه مع المسلمين ويشبهه بالملك هيرود الذى أراد الفتك بالمسيح عليه السلام عندما كان طفلاً .

Voir. Lévi-Provençal. Op. Cit, p. 160, Cambridge Vol 111 p. 155.

(80) Antapodosis p.p 189.

ملك برغونية [٨١] ولما كان كونراد هذا قد صار منذ سنة ٩٤٦م فى جملة أتباع أوتو الأول Otto (٩٣٦ ـ ٩٧٣م) [٨٢] ملك ألمانيا ، فإن مشكلة الوجود الإسلامى فى فراكسينيتوم صارت شغلاً لهذا الآخر، فأجرى اتصالات مع الخليفة الناصر ، لكن هذه الاتصالات لم تسفر عن نتيجة واضحة ، بل إن أدالبرت Adalbert الذى صار ينازع أوتو فى ملك إيطاليا لجأ إلى فراكسينيتوم ، وجعل نفسه تحت حماية المسلمين مما أثار إستنكار البابا ، واضطر أدالبرت لأن يغادرهم [٨٣] .

بعد أن أخفق أوتو فى اتصالاته الدبلوماسية مع خليفة قرطبة عادت مهمة طرد المسلمين من نصيب كونراد ملك برغونية ، وتذهب الرواية النصرانية ـ وإن كنا على غير يقين من صحتها ـ إلى أنه سعى إلى ضرب المسلمين المجريين ـ وكانوا قد عاودوا غزوهم ـ فلما تحقق له

(81) Cambridge. pp. 139-158 .

(٨٢) وقد صار فى سنة ٩٦١م ملكاً على إيطاليا، وفى العام التالى دخل روما وصار امبراطوراً للإمبراطورية الرومانية المقدسة : Cambridge Vol 111p 140

(83) Liudprand: Liber de Rebùs Gestis Ottonis. (In the works of Liudprand of Cremona). P. 216 - 217, 220 .
وكان البابا حنا الثانى عشر (٩٥٥-٩٦٤م) قد توج أوتو إمبراطوراً فى سنة ٩٦٢، ثم اختلف معه عندما أراد أن يفرض سيادته عليه ، مما دفع البابا إلى مساندة أعداء الإمبراطور ومنهم أدالبرت ، وترتب على ذلك أن عزله أوتو وولى غيره فى ٩٦٤ . Cambridge pp. 161 - 163

هذا المسعى واقتتل الفريقان فى مكان لانستطيع أن نحدده أجهز على الجميع [٨٤] .

لاندرى أيضاً متى وقعت هذه المعركة ، وفى حال وقوعها ، فإن ذلك لابد وأن يكون بين سنة ٩٥٢م ، حين اقتحم المجريون مملكة كونراد ، وبين سنة ٩٥٥ حين حقق أوتو الأول انتصاره الكبير عليهم قرب أوجزبورج [٨٥] .

رغماً هذه المعركة ، فقد استمر الوجود الإسلامى فى پروڤانس حتى سنة ٩٧٢م ، وفيها هبت إنتفاضة شعبية ضد المسلمين ، قادها چيوم كونت پروڤانس ، ودارت عدة معارك إلى أن حوصر المسلمون فى حصنهم الرئيسى فراكسينيتوم فى سنة ٩٧٥ م ، ثم اضطروا إلى مفارقته إلى الغابة المجاورة والأهالى فى أثرهم ، فقتلوا بعضهم واسترقوا الباقين .

كان لما أحرزه جيوم من انتصار على المسلمين حافزاً لأن يطلق عليه بعد وفاته لقب أبى الوطن [٨٦] .

---

(٨٤) راجع هذه الرواية فى كتاب رينو ص ١٧١ - ١٧٢ .

(85) Camdridge. Vol 111 p. 160.

(٨٦) رينو ص ١٨٤ - ١٩٢ .

- 6 -

كانت تلك «أوديسية فراكسينيت» كما يدعوها ـ بحق ـ العلّامة ليڤى پروڤنسال ، [٨٧] ، وكما وردت فى المصادر النصرانية .

والسؤال الذى يطرح نفسه .... أين هذه الملحمة من مصادرنا العربية ؟؟

يذهب المؤرخون المحدثون من العرب [٨٨] إلى أن جملة ماورد عن هذه الملحمة ، ورد ـ على نحو عابر ، عند ثلاثة من الجغرافيين المسلمين هم الإصطخرى (ت ٣٤٦هـ) [٨٩] وابن حوقل (ت ٣٦٧هـ) [٩٠] وياقوت (ت ٦٢٦هـ) [٩١] وجميعهم يجعلون هذه المستوطنة جزيرة تدعى بجبل القلال (أو الفلال) .

يقول ابن حوقل : «ولجبل الفُلال الذى بنواحى إفرنجة بأيدى المجاهدين ، عمارة وحرث ومياه وأرض ، تقوت من لجأ اليهم ، فلما

---

(87) Op. cit. tome 11p. 153.

(٨٨) مثل شكيب أرسلان فى تعريبه لكتاب رينو . القاهرة، عيسى البابى الحلبى، ١٣٥٢هـ ، ص ١٦١ ـ ١٦٥ حاشية ١ . رالعبادى فى دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس . الإسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ١٩٨٢م، ص ٢٧٠.

(٨٩) مسالك الممالك . تحقيق محمد جابر الحينى . القاهرة ، وزارة الثقافة ، ١٩٦١م . ص ٥١ .

(٩٠) صورة الأرض نشر كراموز بيروت ، مكتبة الحياة، ١٩٧٩م ص ١٨٥ .

(٩١) معجم البلدان ج١ ص ٢٧٣.

وقع إليه المسلمون عمروه ، وصاروا فى وجوه الإفرنجه ، والوصول إليهم ممتنع ، لأنه يسكنون فى وجه الجبل ، فلا طريق إليهم ، ولايتسلق عليهم ، إلا من جهة هم منها آمنون ومقداره فى الطول نحو يومين» (٩٢) .

مايقوله ابن حوقل ـ وهو معاصر ـ قريب الشبه بما يقوله ليودبراند وهو معاصر كذلك لكن .. هل هذا هو كل ماورد فى مصادرنا؟؟

يقول الأستاذ ليڤى پروڤنسال (٩٣) : إنه من العبث التنقيب فى المصادر العربية عن أية إشارة إلى فراكسينيت .

ويقول الأستاذ مؤنس (ت ١٩٩٦م) (٩٤) «وكل أخبار هذه الجماعة ـ وغيرها أقل منها أهميةً ـ وصلتنا تفاريق فى المدونات النصرانية ، دون أن يعلم بأمرها مؤرخ عربى أو مسلم ، بل ولم تكن الدول الإسلامية القائمة تعرف عن أمرها شيئاً» .

ويقول الأستاذ العبّادى (٩٥) «ومن المؤسف أننا لانجد لنشاطهم أثر

---

(٩٢) فى الرسم المواجه لصفحة ٦٤ يجعل ابن حوقل جبل الفلال جزيرةً فى حجم جزيرة ميرقه ، تقع إلى الشمال الغربى منها ، فى مواجهة بلاد غلشكش إلى يسارها ، وإفرنجه إلى يمينها ، ويفصل بينهما نهر رئيسى ، يترجح إنه نهر الرون .

(93) Op. Cit. Tome 11p . 155.

(٩٤) أطلس تاريخ الإسلام ص ٢٩ .

(٩٥) دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٦٨ .

رواية إلا فى الحوليات الأوربية التى سجلت هذه الأحداث ، وهذا شئ طبيعى ، إذ أنه من العبث أن نلتمس فى كتابات مؤرخى المسلمين شيئاً عن هذه القرصنة ، بحكم كونها منظمةً غير رسميه» .

جماع ما يذهب إليه الأساتذه الفضلاء إنه ليس ثم خبر عن هؤلاء المغامرين فى مصادرنا ، ولم تكن الدولة الأندلسية تدرى عنهم شيئا .

ما نذهب إليه إنه ربما لانجد فى المصادر العربية التى وصلت إلينا خبراً عن واقعة ما ، لكننا لانستطيع أن نجزم بأن هذه الواقعة لم ترد فى مصادر عربية ، فبعض هذه المصادر دثر لسبب أو لآخر ، وبعضها مايزال مخبوءاً لم يتم الكشف عنه بعد(٩٦) .

إذن فإن ورود أخبار عن هذه المستوطنة الإسلامية الأندلسية أمر وارد.

---

(٩٦) بل إننا يمكن أن نجد فى مصادرنا العربية المتاحة اشارات ـ وإن كانت بعيدة ـ إلى أحداث بعينها حسب البعض أن هذه المصادر غفل منها ، ولدينا مثال فى حادثة مشهوره هى حادثة «الشهداء النصارى بقرطبه» فى عهد الأميرين عبدالرحمن الأوسط وولده محمد ، وكان هؤلاء النصارى قد استفزوا السلطة بإهانات متعمدة للدين الحنيف ونبيه الكريم ، فبطشت بهم الدولة ، فبينما يذكر ليفى پروفنسال أنه من العبث التنقيب فى المصادر العربية عن هذه الحادثة Op. cit, tome 1. p 225. نجد فى النص اللاتينى للتقويم القرطبى أخبار وردت عن احتفال النصارى الأندلسيين بأعياد شهدائهم ، وبينهم عدد من شهداء قرطبة ص ٧٥ ، ٨٣ ، ١٣٩ ، ١٤٣ ، ١٦٣ ، كما إن هناك نصاً أورده العذرى فى معرض حديثه عن بعض =

في أحداث سنة ٩٤٠/٣٢٨ يقول ابن حيان[٩٧] : «وفيها عقد حَسْداى بن اسحق الإسرائيلى الكاتب السلم مع شُنْيِير بن غِيفريد الإفرنجى صاحب برشلونة وأعمالها [٩٨] على الشروط التى ارتضاها الناصر لدين الله وحدها ، وأشخص حسداى إلى برشلونه لتقريرها مع شنيير صاحبها ، واتفق أن جاء الأسطول المتحرك من مرسى ألمرية عقب رجب من هذه السنة ، مع إبراهيم بن عبدالرحمن البجانى على مدينة برشلونة ، يوم الجمعة لعشر خلون من شوال ، فعرفهم حسداى بما عقده من سلم شنيير صاحبها ، واستكفهم عن حربه ، فرحل الأسطول عن مرسى برشلونة من يومه .

ودعا حسداى عظماء برشلونة إلى طاعة الناصر لدين الله وسلمه ، فأجابه جماعة من ملوكهم ، منهم أُنْجُه [٩٩] أحد عظمائهم ، ودار

= أجداده البعيدين فيقول «ونزل زُغيبة وياسين بقرية دلاية على شبارية ديو وعلى ملاط العجميين» : المصدر نفسه ص ٩١ ـ ٩٢ وشباريه ديو هذا هو Espera - en - Deo أستاذ أيولوخيو وألبرو المحرضين الأساسيين على حركة الاستشهاد . وقد عاش فى الفترة نفسها التى عاش فيها جدا العذرى .

(٩٧) السفر الخامس من المقتبس ص ٤٥٤ - ٤٥٥ .

(٩٨) Sunyer أو Suniario (٩١٤ - ٩٥٤) ولد بفريدو الكثيف الشعر Vifredo el Velloso (٨٧٤ - ٨٩٨م) أول من أعلن استقلاله بين قوامس برشلونه وأخو بفريدوبريل الثانى (٨٩٨ - ٩١٤م) Véase, aguado Bleye. Op. Cit Tomo 1p. 505 .

(٩٩) هو هيو ملك پروڤانس (وملك إيطاليا كذلك) ويدعى فى الإسبانية Hugo Conde de Provenza, Vallvé. op. cit. p. 172.

قراره بأرض نابل [١٠٠] فأرسل إلى الحضرة [١٠١] وفداً شاهدوا عنه ، وسأل تأمين تجار أرضه على الاختلاف إلى الأندلس ، فأجيب إلى ذلك. ونفذ العهد إلى نصر بن أحمد القائد **بفرّخشَنيط** وإلى عمال الجزائر الشرقية [١٠٢] والمراسى الساحلية بأرض الأندلس ، بتأمين جميع المختلفين من بلد أنجه وغيره ممن سولم من هذه الأمة على دمائهم وأموالهم ، وكل ما تضمنته سفنهم يتصرفون فى تجارتهم حيث شاءوا ، فوردت مراكبهم إلى الأندلس من هذا الوقت ، وعظم الانتفاع بهم ، وسلكت مَررِ كلّه بنت بريل [١٠٣] المملكة على قومها من الإفرنج سبيل أنجه هذا فى سلم الناصر لدين الله ، فأرسلت إليه برّناط الاسرائيلى ثقتها بغرائب من طرائف بلدها المستحسنة ، فقبلها الناصر لدين الله منها ، وكافأها بأنفس منها وأكرم رسلها» .

---

(١٠٠) كذا بالاصل والمقصود أرل عاصمة پروڤانس فى زمن هيو .

(١٠١) يقصد برشلونه

(١٠٢) ميورقة ومنورقة ويابسه وفر منتيرة

(١٠٣) يقصد Riquildes ابنه أخي شنيير وكانت قد تزوجت فى سنة ٩٣٣م أودو ڤايكونت أربونه Aguado Bleye. Op. cit, P, 506 ، وبعد وفاته ورثت عنه ممتلكاته . المقتبس لإبن حيان السفر الخامس ص ٤٥٤ حاشية ٥ .

نخرج من هذا النص بالحقائق الآتية :

(١) إن فراكسينيتوم ورد ذكرها بصيغة أندلسية هى فَرَخْشَنَيط[١٠٤] عند مؤرخ كبير هو ابن حيان ، ولايبعد أن ورد ذكرها عند مؤرخين أندلسيين غيره.

(٢) وإن قائد المسلمين به كان فى هذه السنة المؤرخة (٣٢٨هـ) يدعى نصر بن أحمد وكان يأتمر بأوامر الناصر .

(٣) وإن حسداى ـ سفير قرطبة ـ عقد السلم مع صاحب برشلونة بشروط الناصر .

(٤) ودخل فى هذا السلم صاحب آرلة (فى پروڤانس) وصاحبة أربونة (فى سبتيمانيا) وغيرهما من زعماء النصارى .

(٥) وعليه فقد صدر أمر الناصر إلى الأسطول المتحرك بالكف عن حرب النصارى ، والعود عن برشلونة .

---

(١٠٤) والصيغة الأندلسية فرخشنيط ليست بغريبة عن الأندلسيين ، فثم مواقع ومدن أندلسية تنتهى بالياء والطاء ، وهو مقطع يفيد التكثير ، مثل مجريط (مدريد) ومسنيط (وهى لوشه بلد ابن الخطيب) . اللمحة البدرية ص١٨. وقنيط على الطريق من قرطبة الى تدمير العذرى ص ٣ وفرغليط من شقورة من كورة جيان . الإحاطة . تحقيق عنان . القاهرة الخانجى ، ١٩٦٧ ١٩٧٧ ج ٢ ص ٣٨٨ . بل توجد قرية من قرى الأشات بالبيرة تدعى فرخشبيط . تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى ج ١ ص ١٧٦ ، وانظر أيضاً مدريد العربية لمحمود على مكى . القاهرة ، دار الكاتب العربى ١٩٦٩م ص ٤٢ .

(٦) كما صدر أمره إلى مسلمى فرخشنيط بتأمين المختلفين من البلاد التى عقد سلمها ـ وخاصةً بلد أنجه (هيو) ـ على دمائهم وأموالهم ، ويتصرفون فى تجارتهم حيث شاؤا .

- 7 -

يتضح من النص أن الدولة الأندلسية ـ فى عصر الناصر ـ كانت لها صلات بهؤلاء المغامرين الأندلسيين ، وأنهم كانوا يأتمرون بأمرها.

والسؤال متى بدأت هذه الصلات ؟

لانشاهد فى مصادرنا خبراً عن صلات فى المرحلة السابقة لولاية الناصر (١٠٥) .

السبب هو إن هؤلاء المغامرين ، أقدموا على مغامرتهم هذه بمبادرة منهم ، وليس من الدولة ، ثم إن الأندلس كانت تعيش ـ إذ ذاك ـ فتنةً طاميةً عمت أقطارها جميعها ، وكانت الدولة ـ من ثم ـ فى شغل عنهم (١٠٦) .

---

(١٠٥) يذهب بايبى إلى أن الفضل فى استيلاء هؤلاء المغامرين على فرخشنيط يعود إلى أسطول الدولة .Op. cit p. 127 ويزعم أرشيبالدلويس أن الدولة كان لها فى القرن التاسع الميلادى أسطول يرابط فى الثغور يقوده «أمير سرقسطة وفراكسنيت» ص ٢٥١ . ولانعلم إلى أى مصدر يستندان .

(١٠٦) يقول ابن الخطيب بصدد الأمير عبدالله (٢٧٥/٨٨٨ - ٣٠٠/٩١٢) «وتصيرت إليه الخلافة (يقصد الإمارة) وقد تحيف النكث أطرافها ، واقتسمها الثوار وكلب عليها الأشرار ، ولم يبق منها إلا الإسم =

عندما استقرت أمور الدولة الأندلسية ، بعد سنوات من ولاية عبدالرحمن الناصر ، ثم إعلانه خليفةً فى سنة ٣١٦ / ٩٢٩ ، تحولت الأندلس إلى قوة إقليمية كبيرة ، وأضحى لهذه القوة مجالها الحيوى الذى تحرص عليه سواء لدى العدوة المغربية أو الأرض الكبيرة.

دخل هؤلاء المغامرون فى بؤرة اهتمام الدولة ، وصار هناك قدر من التبعية لحضرة قرطبة ، وينوه إلى هذه التبعية ليودبراند ـ وهو مصدر معاصر ـ فى كتابه المكافأة .

فى بداية كتابه يخاطب ليودبراند صديقه ريثيموندو Recemundo [(١٠٧)] فيقول [(١٠٨)] «أحسب ـ سيدى ـ أنك تعلم

= فوق ظهر منبر قرطبة ، والقليل من غيرها ، وساءت الظنون ولم يدر عبدالله إلى أين يصرف وجهه» أعمال الأعلام ج٢ . تحقيق ليفى پروفنسال الرباط، معهد العلوم العليا المغربية، ١٩٣٤م . ص ٣٠ ، وانظر ايضاً البيان المغرب ج٢ ، ص ١١٦-١١٧.

(١٠٧) وهو ربيع بن زيد أسقف إلبيرة ومبعوث الناصر الى ملوك أوربا وفى جملتهم أوتو ، وقد تعرف الى ليودبراند إبان سفرته إلى المانيا ، موفداً من خليفة قرطبه. وأهدى إليه كتابه المكافأة ، وكانت لربيع دراية واسعة بالآداب العربية واللاتينية ، كما كان مبرعاً فى الفلك ، ويترجح أنه صاحب النص اللاتينى لتقويم قرطبة الذى كتبه نصه العربى عريب بن سعد القرطبى ، راجع فى ترجمته نفح الطيبب ج ٣ ص ١٨٦ وانظر ايضاً Simonet. op. cit, Capitulo xxx pp. 603 - 618 & 1. Lévi-provençal. op. cit, tome 11 pp 222 - 223

(108) Op. Cit. 6. p. 33.

جيداً بخير فرخشنيط ، بل وتعرفها أكثر منى ، ولديك أخبار عن هؤلاء القوم الذى يتبعون ملكك عبدالرحمن» .

وجدير بالذكر أن أوتو الكبير فى مراسلاته مع عبدالرحمن الناصر - وقد خلت المصادر العربية من مضمونها - يؤكد على مسئولية الخليفة عن هؤلاء المغامرين وتخريبهم لبلاده ، ويطلب منه أن يأمرهم بالكف عنها (١٠٩).

هناك إذن تبعية .. لكن ماهى حدود هذه التبعية ؟

نعاود المقتبس ونشاهد ابن حيان فى ذكره لأحداث كل سنة يفرد فصلةً كاملةً للتولية والعزل .. لكننا لانشاهد خبراً واحداً عن تولية لقائد فرخشنيط أو عزله .

كيف نفسر إذن تبعيةً ، مع انتفاء أهم مظهر لهذه التبعية ؟؟

فى تقديرنا إن الخليفة الأموى بقرطبة ، كان يتوخى فى تعامله مع هؤلاء المغامرين ، أن يقوموا بأمر أنفسهم ، فهم أعرف بظروفهم كطليعة إسلامية تقع فى صميم الأراضى النصرانية .

الأكثر من هذا فداخل حدود الأندلس ذاتها ، درج أمراء بنى أمية وخلفاؤهم على أن يمنحوا قدراً من الاستقلال للثغور مع العدو ، وكانوا

---

(١٠٩) راجع تفصيلات هذه الاتصالات فى H.E.M. Tome 11 pp. 156- 162.

يغضون البصر فى بعض الأحيان عن استيلاء عدد من الزعماء الطموحين عليها ، وتأسيسهم أسرات توارثت الحكم فيها ، ونجد مثالاً واضحاً على هذه السياسة فى عصر الناصر نفسه ، حين أقر التجيبيين بسرَ قُسْطَةَ Zaragoza ، رغماً عن استجاشة هؤلاء بالنصارى واتخادهم معهم غير مرة (١١٠) .

نذهب إلى أن الناصر عقد الخناصر مع هؤلاء المجاهدين ، من منطلق الدين ، خصوصاً وقد أعلن نفسه خليفةً للمسلمين ، ومن منطلق أن تكون دولتهم ـ إذا جاز التعبير ـ قلعةً أمامية ، لضرب إمارات الثغر الإسبانى ، وخاصةً إمارة برشلونة التى كانت قد شهدت نهضةً على يدى بفريدو الكثيف الشعر ، بل وضرب سائر القوى النصرانية المعادية فى الأرض الكبيرة .

فى المقابل نجد الناصر يقدم يد العون الى هؤلاء المغامرين فى ثغرهم النائى ، ولدينا خبر فى المقتبس (١١١) عن حملة بحرية لأسطول الأندلس ، يقودها عبدالملك بن سعيد بن أبى حمامة ، أرفأت من ميناء ألمرية فى سنة ٣٢٣ / ٩٣٥ ، وعاثت لدى سواحل پروڤانس «وتقدم الأسطول إلى مدينة أنيش (١١٢) . وهى دار صناعتهم ومرفأ مراكبهم ،

---

(١١٠) المقتبس لابن حين السفر الخامس ص ٣٧٩ رمابعدها .

(١١١) السفر الخامس ص ٣٦٧ .

(١١٢) وهى نيس .

فأحدق المسلمون بها براً وبحراً ، وأحرقوا المراكب فى مرساها والأرباض حولها ، وقتلوا جميع من أصابوا فيها ، وانتهى القتل فيهم إلى أزيد من أربعمائة رجل» .

وما فعله المسلمون بأنيش فعلوه بغيرها من مدن الساحل وآخرها برشلونة ، ثم قفلوا إلى طرطوشة .

وكان على هؤلاء المجاهدين ـ فى الوقت نفسه ـ أن يلتزموا بسلم الدولة وصلحها مع خصومهم وخصومها ، وهو مانشاهد دليلاً عليه فى سنة ٣٢٨ / ٩٤٠ .

وعلى ذكر هذا الصلح يذهب دوزى [(١١٣)] (ويتابعه العبادى) [(١١٤)] ، إلى أن الناصر تحالف مع هيو البروڤانسى ضد الفاطميين لاتحاد المصلحة بين الاثنين [(١١٥)] ، ونذهب إلى أن ما

---

(١١٣) المسلمون فى الأندلس . ترجمة حسن حبشى . القاهرة الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٤ - ١٩٩٥ . ج٢ ص ٤١ - ٤٢ .

(١١٤) فى التاريخ العباسى والفاطمى الإسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ١٩٨٢ . ص ٢٤٢ . سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس . صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد مجلده ١٩٥٧ ص ٢٠٧ .

(١١٥) تردد الفاطميون بغزواتهم على إيطاليا وما جاورها من السواحل ، وفى سنة ٩٣٥/٣٢٣ أغار الأسطول الفاطمى على جنوة وافتتحها ، وأوقع بأهل سردانية . ابن الأثير ج ٤ ص ٥٦٨ ، ج ٨ ص ٣١٠ ، نهاية الأرب. ج ٢٤ ص ٣٦٨ وانظر أيضاً Liudprand. Op. Cit, p. 144.

يذهب (أو يذهبا) إليه بجانبه الصواب ، فلا يحدد دوزى مصدره أولاً ، ثم إننا لانقف على خبر عن التحالف فى مصادرنا المتاحة ، ونص ابن حيان صريح ، لاينوه إلى تحالف ، وينوه ـ فقط ـ إلى صلح عقد بشروط الناصر .

لكن هذا الصلح الذى عقد فى العام ٩٤٠/٣٢٨ جرى نقضه بعد عامين ، عندما حرض هيو المجريين على غزو الأندلس ، وفرض ـ مع ملك الروم ـ حصاره على فرخشنيط .

نحن بدورنا نربط بين الحادثين ، فهيو وقد اعتزم الاستيلاء على فرخشنيط ، سعى إلى أن يمنع عوناً يأتيها من الأندلس فحفز المجريين[١١٦] على غزوها ، فيشغل الأندلسيون ـ من ثم ـ بالدفع عن أنفسهم، وليس بالدفع عن قلعة نائية عنهم .

---

(١١٦) ويدعون فى الوثائق المعاصرة عربية وبيزنطية بالأتراك . وحين يتحدث ابن حيان عن غزوتهم هذه يقول : «خبر ظهور الترك بالثغر الأعلى» السفر الخامس ص ٤٨١ و وانظر أيضاً : إدارة الإمبراطورية البيزنطية لقسطنطين پورفير وجنيتوس ترجمة محمود سعيد عمران . ص ٤٠ ومابعدها وقد وصل المجريون فى غزواتهم هذه إلى مدنية لاردة Lérida قاصية الثغر الأعلى فحاصروها وأسروا يحى بن محمد الطويل صاحب بربشتر Barbastro «فعظم ذلك على الناصر لدين الله واشتد غمه» ، على أن هؤلاء المجريين لم يلبثوا أن ارتدوا فجأة ، وافتدى المسلمون الطويل وأسروا بعض الغزاة . المقتبس ص ٤٨١ - ٤٨٣ .

في أعقاب غدرة هيو بالمسلمين توجه أسطول أندلسى كبير ، يقوده محمد بن رماحس إلى سواحل إفرنجه فعاث فى أنحائها «وحارب مشينية [(١١٧)] وتغلب على بعض أرباضها ، واستخرج الأطعمة من بعض أهرائها ، وارتفع أهلها إلى حصنها وانصرف منها» [(١١٨)] .

بعد هذه الغزوة ـ وقد وقعت فى سنة ٣٣١ / ٩٤٢ لاتتوافر لدينا فى مصادرنا المتاحة أخبار تختص بالفصل الأخير من هذه الملحمة الإسلامية الأندلسية الكبيرة ، وربما توافرت هذه الأخبار فى السفر السادس لمقتبس ابن حيان ، ولم يتم الكشف عنه بعد .

- 8 -

خلال القرن الثالث الهجرى ومطالع القرن الرابع ، نشطت لدى سواحل الأندلس الشرقية جماعات من البحريين الأندلسيين ، ينتمون فى معظمهم إلى المولدين ، اتخذوا بهذه السواحل مواقع ، أهمها ـ فى

---

(١١٧) يفهم من السياق أنها مسيلية (Massilia) = مرسيليا وقد وردت بهذا الرسم فى الترجمة الأندلسية لتواريخ أوروسيوس . تحقيق عبدالرحمن بدوى . بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨٢ ، ص ٤٠٦ ، وهى عند الإدريسى مشيلية ج٧ ص ٧٤٩ ، والمعروف أن الأندلسيين كانوا يقبلون السين شيناً ، كما كانوا يبادلون بين اللام والنون .

(١١٨) نصوص عن الأندلس للعذرى ص ٨١ ، انظر أيضاً دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس للعبادى ص ٢٧٢ .

بداية نشاطهم ـ مدينة طرطوشة وما جاورها شمالاً ، ثم صارت مدينة بجانة وما جاورها جنوباً .

عندما اضطربت أمور الأندلس فى أواخر عصر الإمارة ، تحقق لهؤلاء البحريين قدر من الإستقلال بمدينة بجانة ، وأنشئوا ما يمكن أن نطلق عليه تعبير جمهورية ، حافظت على هذا القدر من الإستقلال نحو خمسة وثلاثين عاما ٢٧٥ ـ ٣١٠هـ .

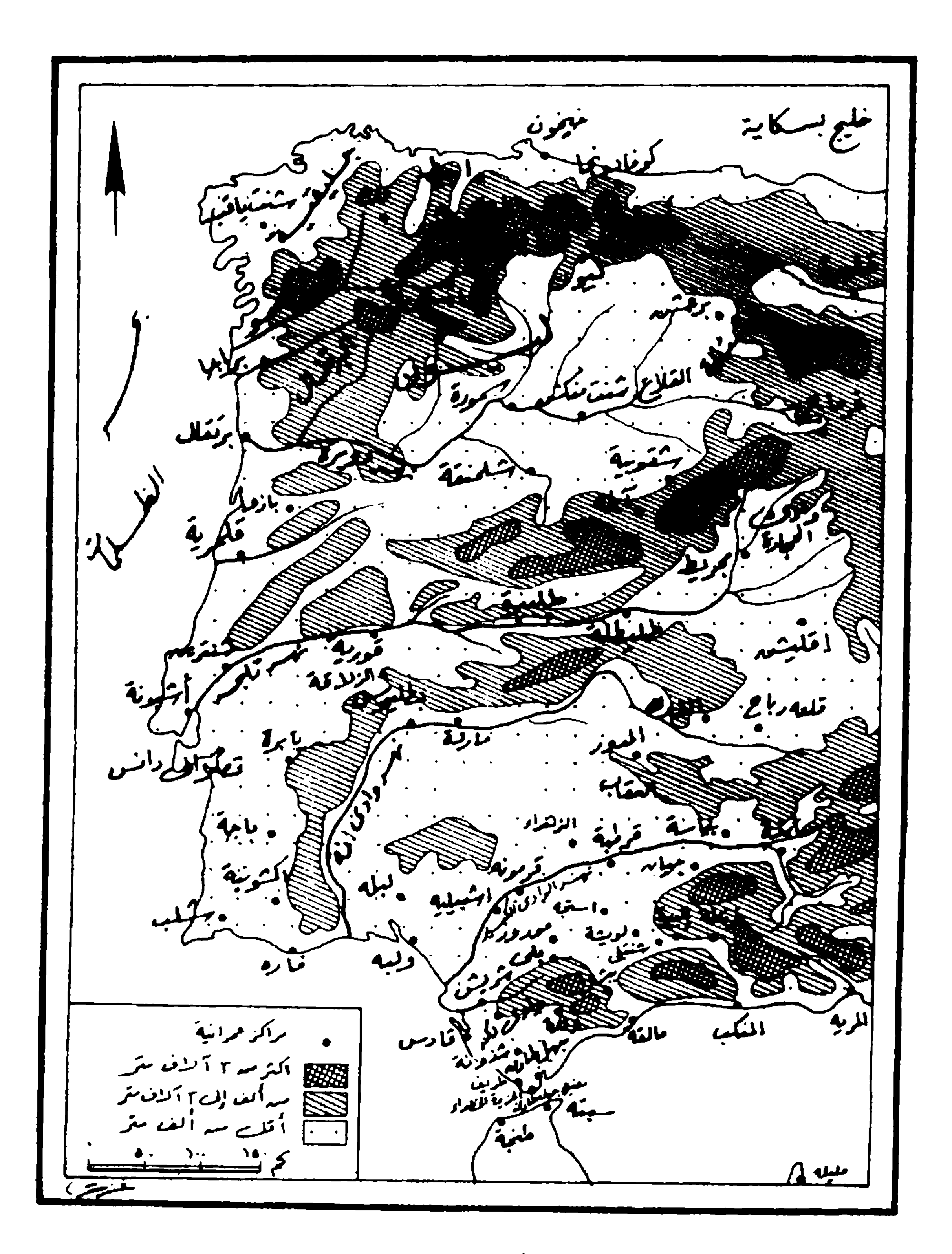
نشط هؤلاء البحريون فى مجال التجارة مع بلاد المغرب ، بخاصةً المغرب الأوسط ، وأسسوا لدى سواحله مدناً أهمها تنس ووهران .

على أن دور البحريين التاريخى يرتبط على نحو خاص بالجهاد ، فقد تطرقوا بغزواتهم إلى جزر الروم ، ثم امتدوا بهذه الغزوات إلى إقليم پروڤانس ، حيث استقروا حول سنة ٨٩٠م وابتنوا مجموعةً من الحصون، أهمها فرخشنيط ، واتخذوها قاعدةً لهجمات على جبال الألب وممراتها ، وسببوا إزعاجًا للأهلين وللسلطات الحاكمة جميعاً ، إلى أن انتهى أمرهم فى سنة ٩٧٥م .

ويتضح لدينا أن الدولة الأندلسية فى قرطبة ، كانت على علم بنشاط هؤلاء المجاهدين ، ووضحت صلاتها بهم فى عصر الخليفة الناصر لدين الله ، وصاروا تابعين لها يأتمرون بأمرها ، ويلتزمون بحربها وسلامها ، وكانت الدولة من جانبها تساندهم ، وتسعى إلى دفع المضرة عنهم .

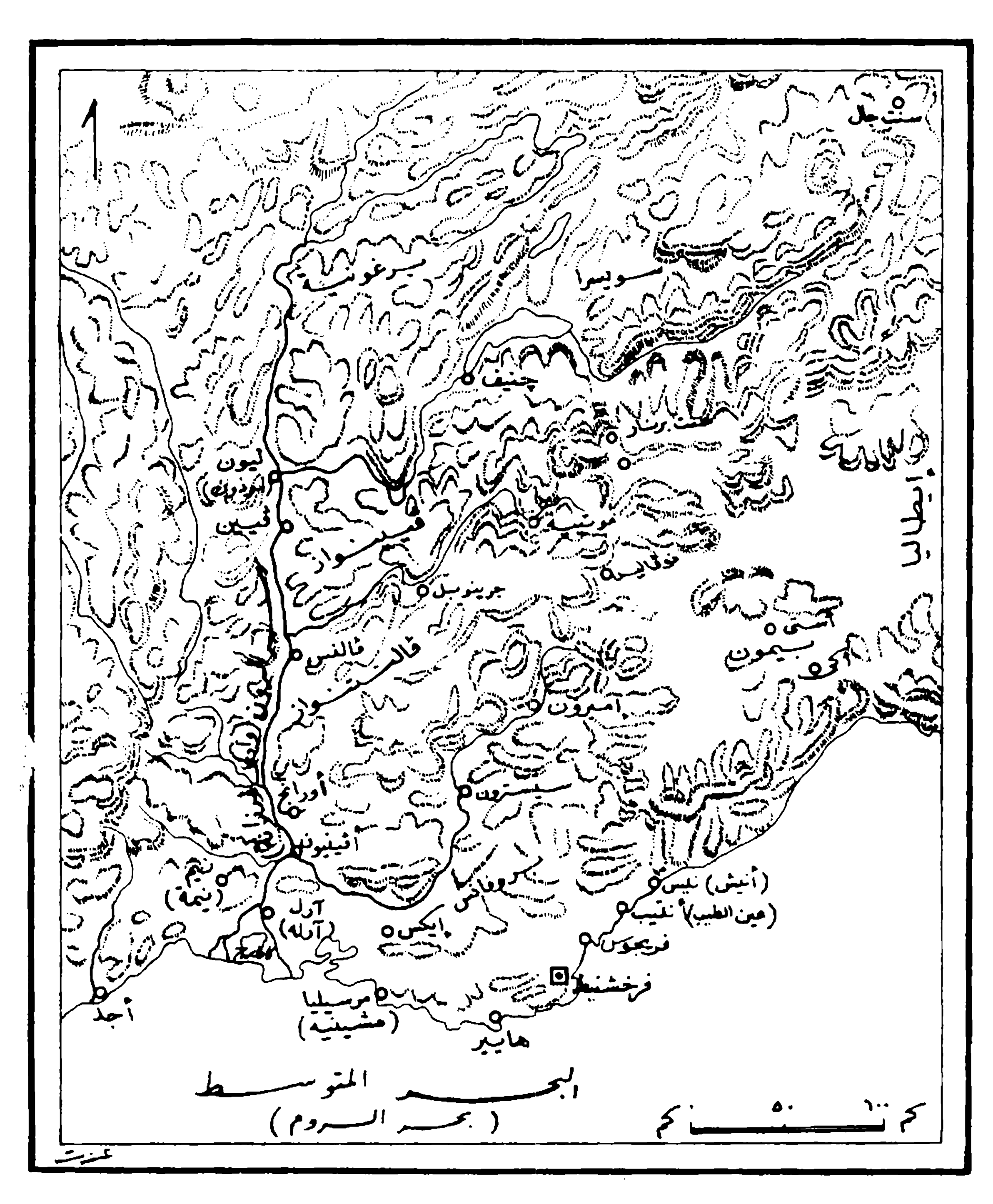

خليج بسكاية
مرسيليا
أربونة
جرندة
برشلونة
طركونة
لاردة
وشقة
افراغة
سرقسطة
طرطوشة
بلنسية
شاطبة
دانية
لقنت
أوريولة
قرطاجنة
المرية
منورقة
ميورقة
يابسة
فرمنتيرة
الجزائر الشرقية
(البليار)
بحر الروم
وهران
مليلة
مراكز عمرانية
أكثر من ٣ آلاف متر
من ألف الى ٣ آلاف متر
أقل من ألف متر
كم ٢٠٠ ١٥٠ ١٠٠ ٥٠ ٠

إسبانيا



خليج بسكاية
برتقال
قلمرية
أشبونة
باجة
شلب
فارة
ولبة
لبلة
اشبيلية
قرمونة
قرطبة
الزهراء
قلعة رباح
أقليش
شقوبية
طليطلة
المنكب
المرية
مالقة
سبتة
طنجة
مليلة
مراكز عمرانية
أكثر من ٣ آلاف متر
من ألف إلى ٣ آلاف متر
أقل من ألف متر
كم
٥٠
١٠٠
١٥٠

إسپانيا



فرخشنيط وما جاورها (الأسماء العربية بين أقواس)

(عن ليڤى ـ پروڤنسال . H . E . M)

كتب المؤلف

1 ـ صقر قريش : عبد الرحمن الداخل . القاهرة ، دار الكاتب العربي ، 1968 . (أعلام العرب ـ 76) نفد .

2 ـ عن العرب والبحر ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، 2001 (الطبعة الأولى 1989) .

3 ـ أندلسيات ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، 2001 (الطبعة الأولى 1989) .

4 ـ تاريخ النصارى فى الأندلس . القاهرة ، 1993 .

5 ـ الزُط والأصول الأولى لتاريخ الغجر . القاهرة ، 1994.

6 ـ الخصوصية الأندلسية وأصولها الجغرافية . القاهرة ، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية 1995 .

7 ـ قراءة جديدة فى عهد عمر . القاهرة ، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية ، 1996 .

8 ـ العقد الثمين فى تاريخ المسلمين . الطبعة الثانية ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة 2001 ، الطبعة الأولى (الكويت ، دار الكتاب الحديث 1996) .

9 - المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب ؛ الطبعة الثانية. القاهرة 2000 ، (الطبعة الأولى 1997) .

10 - القطوف الدواني في التاريخ الإسباني . القاهرة ، 1998 .

11 - دراسات في التاريخ والثقافة العربية ؛ مهداة إلى رءوف عباس حامد . القاهرة ، الدار المصرية اللبنانية 2001 (تحرير) .

12 - الفجر . تأليف سير أنجوس فريزر . القاهرة ، المجلس الأعلى للثقافة 2001 . (ترجمة) .

13 - هوامش على دفتر الزمان . القاهرة ، 2001 (تحت الطبع) .

رقم الإيداع

٤٤٥٢ / ٢٠٠١

الوادي الجديد للطباعة

تليفون / ٣٢٠١٤٧٢